3 me Année, No. 82.

Lundi-28-1-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢ عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة — « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ شوال سنة ١٣٥٣ — ٢٨ يناير سنة ١٩٣٥ » — العدد ٨٢

فهرس العدد

الثقافة المذبذبة

كتب إلىَّ صديقى الأستاذ م . ف . ا . يقول :

« أنا معلّم كما تعلم ؛ ولكنى معلم لا أعتقد فيما يعتقد فيه الكثرة من المعلمين سواى ؛ وذلك أننى لا أومن كثيراً بأوربا ، ولا بما جاء من أوربا ، إلا أن يكون ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادى أو كشف علمى . أما فيما يتعلق بالآراء والنفس ، وفيما يتصل بالعقل والقلب ، فأنا شرقى ولا أحب إلا الشرق ، ومصرى ولا أحب إلا مصر . ولقد كان مما يؤلمنى دائماً أن أرى الابن الناشئ قد عاد من انجلترة أو من فرنسا ، فلا يكاد يظهر للأعين إلا فى هيئة نابية يزعم أنها دليل المدنية التى اكتسبها من الغرب ، فيمتدح فرنسا أو انجلترة وما فيها من مناهج ومناظر ومعاهد ، وهو فى الحق إنما يريد أن يقول إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التى يمتدحها ، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشر ، ولا يقصد إلا الى الفخر والاعجاب بالنفس . دع ذلك ، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر ، أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة ، ذلك بأن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء الى أن يخدعوا بعض الشيوخ ، أو بعض الجوف من الشيوخ ، بأنهم دعاة العلم والمدنية ، فألقيت اليهم مقاليد الأمور

في بعض النواحي ، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده في مسائل التعليم . وإليك مثلا من ذلك : إن برامج التعليم الأدبية — وهي أداة الثقافة والقومية — لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية : فواضع برامج التاريخ هو بعض الجُوف ممن تعلموا تاريخ أوربا ، فنقلوا من هذا ما ظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية ، فكانت النتيجة أنك اذا نظرت في برامج القسم الأدبي في التاريخ خيل اليك أنك تنظر في بعض برامج فرنسا أو انجلترة ، أو خليطاً من هذا وذاك ، وأما مصر فلا شأن لها في ذلك وا حسرتاه ! وكذلك الحال في سائر المواد الأدبية ، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لاعداد أبنائنا ليكونوا أجانب في عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم

أليس هذا من العبث يا سيدي الأستاذ ؟ أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوى ، ولك من أبناء البلاد الثناء الجميل »

* * *

وصديقي الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع ، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحافي لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل ، فيكون الرأي أجمع ، والحكم أقطع ، والبلاغ أعم

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الاسلامي كله ، فانه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن لم يرد أن يبصر بعينيه ، ويسير على قدميه ، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً ، ووجوداً مستقلا ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ؛ وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكأ في سيره على عمود الشَّرَك ، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضا وطواعية ، فهم يتكلمون بلغتها ، ويتأدبون بأدبها ، ويَتَّسمون بِسِمَتها ، ويتخلقون بخلقها ، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها ، ويغالطون طباعهم في أصل الفطرة فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربي من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه ، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تحدث فرقاً ، ولا تغير خَلقاً ، ولا تبدل طبيعة !

إن الاستعباد المادي دهمنا أمس على يد الآباء ، والاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء ، وشتان بين استعباد كان عن إجبار وجهل ، واستعباد يكون عن اختيار وعلم ؛ والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية ، لأن هذه لا تتعدى الأجسام والحطام والعَرَض ، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه ؛ أما تلك فحكمها حكم العقل اذا ذهب ، والروح اذا زهق ، وهل يرجى لمخبول شفاء ، أو ينتظر لمقتول رجعة ؟

إن أكثر نَشْئِنا الذين وردوا مناهل الثقافة العالية في أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة وتفكك البيئة وفساد التعليم وضعف التربية ، فكوّنوا عقولهم على منطق الاعجاب ، وميولهم على هوى التبعية ، ثم عادوا وفي حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر ، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب ، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق ، فتصرفوا تصرف المقلد ، وتعسفوا تعسف الحائر ، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة ، وإباء الفطرة ، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الارادة

إن العلم لا وطن له ، لأنه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة في العالم كله لخير الناس كله ؛ أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد فهي قِوَام الأمم ، ولا تنزل أمة عنها الا اذا نزلت عن ذاتها وزَلّت عن مستواها ؛ لخضوع الثقافة القومية للانجليزية في مصر وفلسطين ، وللفرنسية في سورية والمغرب ، وللأمريكية في العراق والمهجر ، بلاء على هذه الأمم لا تسلم عليه وحدة ، ولا يستقل معه وطن

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فعلّته ان التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة . قل لواضع البرنامج مهما يكن : أريد أن أصل بالتعليم الى هذه الغاية ، تجد الغاية نفسها هي التي تعيّن السبيل وتحدد الوجهة ؛ أما اذا كانت سياستنا في التعليم أن ننشئ المدارس ونهيئ المدرسين وننظم الامتحانات ، فان جماع الأمر في المعارف إذن أن تكون حقولاً للتجارب فيها لكل سياسة أثر ، ولكل ثقافة ثمر ، ولكل أمة غير أمتها نصيب

احمد حسن الزيات

بنته الصغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

فرغ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار ، زاهدُ البَصرة وعالمها ، من كتابة المُصْحَف ؛ وكان يكتبُ المصاحف للناس ويعيشُ مما يأخذ من أجرة كتابته ، تعففاً أن يَطْعَم إلا من كَسْب يده ، ثم خرج من داره وَجْهَهُ المسجدُ ، فأتاه فصلّى بالناس صلاةَ العصر ، وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع وسجد ما شاء اللهُ حتى قضى نافلتَه ، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى أسْطُوانته[1] التي يستند إليها ، وتَحَلّقَ الناسُ حوله جموعاً خلفَ جموعٍ خلفَ جموع ، يذهب فيهم البصرُ مرةً هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم ؛ حتى تغطّى بهم المسجدُ على رُحْبِه . ومدّ الامامُ عينه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة ، والناسُ كأن عليهم الطيرَ مما سكنوا لهيبته ، ومما تَجبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندّتْ عيناه ، فما نَظَر إليهم حتى كأنما اطّلع على أرواحهم نجمٌ رطْبٌ من سَحَر ذلك الندى

وبَدَرَ شابٌ حدَثٌ فسأله : ما بكاءُ الشيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الامام في مَحْت بصره ، فتأمله الشيخ طويلاً يقلّب فيه الطرْفَ كالمتعجب ، ولَبِثَ لا يجيبه كأنما عَقَدَ لسانَه أو أخذته عن نفسه حالٌ ، فما يُثْبِتُ شيئاً مما يرى

وازداد الناس عجباً ؛ فما جرّبوا على الشيخ من قبلها حَصَراً ولا عِيّا ، ولا قَطَعَه سؤالٌ قطّ ، ولا تخلّف قطّ عن جواب ؛ وقالوا إن له لشأناً وما بُدٌّ أن تكون من وراء حُبْسَتِه شِعابٌ في نفسه تَهْدِر بسَيْلها وتعتلج ، فما أسرعَ ما يلتقي السيلُ ، فيجتمعُ ، فيَصوبُ إلى مجراه ، فيَتَقاذَف

وتبسّم الامام وقال : أما إني قد ذكرتُ ذكرى فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا فتبسّمتُ لها ؛ أما الذكرى ، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يَفْهَق بهذا الحشْد العظيم ، وتقع فيه المدينة لكل أذان وتطير — هل تعلمون أنه خلا قطّ من الناس وقد وَجَبت الفريضة ؟ قالوا : ما نعلمه . قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خلتْ ، في مَوْت الحسن[1] ؛ فقد مات عَشيّةَ الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتَبع أهلُ البصرة كلُّهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تُقَم صلاةُ العصر بهذا المسجد ؛ وما تُركتْ منذ كان الاسلامُ إلا يومئذ ؛ ومثل الحسَن لا يموت ساعةُ موته من عُمر مَن شهدَها ، فذلك يومٌ عجيب قد لفّ نهارُه البصرةَ كلَّها في كفنٍ أبيض ، فما بقيتْ في نفس رجلٍ ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كلُّ إنسان من باطله كما يَفرغ مَن أيقن أنْ ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموتُ في حقيقة جديدة بالغة الرَّوْع لا يراها الأبناءُ في موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباءُ والأمهاتُ في موت مَن ولَدوا ، ولا المحبُّ في موت حبيبه ، ولا الحميمُ في موت حميمه ؛ فان الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيرُه في الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكون الموتُ واحداً وتتمدّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة !

ذلك يومٌ امتدّ فيه الموتُ وكَبر ، وانكمشتْ فيه الحياةُ وصغرتْ ، وتحاقَرَت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقى فيها الملوكُ والصعاليكُ ، والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لا يَصغر عنها الصغير ، ولا يكبرُ عنها الكبير ؛ لا بل دون ذلك حتى رجعت الدنيا على قدر جيفةِ حيوانٍ بالعراء ، تنكشف للأبصار عن شوهاء نجسةٍ قد أرَمّت[2] لا تُطاقُ على النظر ولا على الشمّ ولا على اللمس ؛ وما تنفجر إلا عن آفة ، وما تنفجرّ إلا لهوامّ الأرض

تلك هي الذكرى ، وأما الرؤيا فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى فأبصرتُني حين كنتُ مثلَه يافعاً مُتَرَعرِعاً داخلاً في عصر شبابي ، فكأنما انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتكٍ

(١) كان العلماء والرواة يجلسون الى اساطين المسجد ، وهى أعمدته ، كما كان بالأزهر الى عهد قريب .

(١) هو الحسن البصرى الامام العظيم وسيأتى وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١١٠ ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠

(٢) أرمت : بدأت تتعفن وتبلى

خبيثٍ كان في جناياته في أغلاله في سجنه ؛ ومات طويلاً ثم بُعث !

إني مُخبركم عنيّ بما لم تُحيطوا به ؛ فأرعوه أسماعكم ، وأحضروه أفهامكم ، واستجمعوا له ، فانه كان غيبَ شيخكم ، وأنا محدّثكم به كيلا ييأسَ ضعيف ولا يقنطَ يائس ، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين

* * *

لقد كنتُ في صدرِ أيامي شُرطياً ، وكنت في آنفةِ الحداثة من قبلها أتفتّى وأتشطّر ، وكنت قوياً معصوباً في مثل جِبِلّة الجبل من غلظٍ وشدة ، وكنت قاسياً كأن في أضلاعي جندلةً لا قلباً ، فلا أتذمّم ولا أتأثم ؛ وكنت مُدمناً على الخمر ، لأنها روحانيةُ مَن تحجّرَ أن تكون فيه روحانية ، وكأنها إلهيةٌ زوّرها الشيطانُ — لعنه الله — فيتخلّق بها للنفس ما تحب مما تكره ، ويثيبها ثوابَ ساعةٍ ليست في الزمن بل في خيال شاربها . وكأن جهلَ العقل نفسَه في بعض ساعات الحياة هو — في علم الشيطان وتعليمه — معرفةُ العقل نفسَه في الحياة !

فبينا أنا ذاتَ يوم أجول في السوق ، والناسُ يفورون في بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقُب السارق ، وأرصد للجاني ، وأتهيأ للنزاع — إذ رأيتُ اثنين يتلاحيان وقد لبّبَ أحدُهما الآخر ؛ فأخذتُ إليهما ، فسمعت المظلوم يقول للظالم : لقد سلبْتَني فرحَ بُنيّاتي ، فسيدعون الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيراً ، فاني ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخصّ به الاناثَ دون الذكور — نظرَ اللهُ إليه . »

قال الشيخ : وكنت عزَباً لا زوجةَ لي ، ولكن الآدميةَ انتبهتْ فيّ ، وطمعتُ في دعوة صالحة من البُنيّات المسكينات ، إذا أنا فرّحتُهن ، ودخلتْني لهن رقةٌ شديدة ، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضي ، وأضعفتُ له من ذات يدي لأزيدَ في فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهدٌ يحاسبُكَ الله عليه ويستوفيه لي منك ، أن تحملَ بناتك يدعون لي إذا رأيتَ فرَحهنّ بما تحمل إليهنّ ، وقل لهن : مالِك بن دينار

وبتُّ ليلتي أتقلّب مفكّراً في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيه الكثيرة ، وحثه على إكرام البنات ، وأن مَن أكرمَ بناتِه كرُمَ على الله ، وحرصِه أن ينشأن كريماتٍ فرحات ؛ وحدّثني هذا الحديثُ ليلتي تلك إلى الصبح ؛ وفكّرت حينئذ في الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوّجونني من طيّباتهم مادمتُ من الخبيثين ؛ فلما أصبحتُ غدوت إلى سوق الجواري ، فاشتريتُ جاريةً نفيسة ، ووقعتْ مني أحسنَ موقع ، وولَدَتْ لي بنتاً فشُغِفْتُ بها ، وظهرتْ لي فيها الانسانيةُ الكبيرة التي ليست فيّ ، فرأيت بُعْدَ ما بيني وبين صورتي الأولى ؛ ورأيتها سماويةً لا تملك شيئاً وتملك أباها وأمها ، وليس لها من الدنيا إلا شِبَع بطنها وما أيسَره ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تَشُبُّ عليه أكثرَ مما تشُبّ على الرّضاع ؛ فعلمت من ذلك أن الذي تكتنفه رحمةُ الله ، تملكُ بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره ؛ وأن الذي يجد طهارةَ قلبه يجد سرورَ قلبه ، وتكون نفسه دائماً جديدة على الدنيا ؛ وأن الذي يحيا بالثقة تُحْييه الثقة ؛ والذي لا يبالي الهمّ لا يبالي الهمُّ به ؛ وأن زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلب من الهم — كلُّ ذلك من صِغر العقل في الأعماق حين يكبر العقل في العلم !

كانت البُنيّةُ بدءَ حياةٍ في بيتي وبدء حياة في نفسي ، فلما دبت على الأرض ازددتُ لها حباً ، وألِفتني وألفتها ، فرُزِقتْ روحي منها أطهرَ صداقة في صديق ، تتجدّد للقلب كلّ يوم ، بل كل ساعة ، ولا تكون إلا لمحض سرورِ القلب دون مطامعه ، فتُمِدُّه بالحياة نفسِها لا بأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء في المحبة ولا تنقص منها ، على خلاف ما يكون في الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضرّة والمنفعة

* * *

قال الشيخ : وجَهَدْتُ أن أتركَ الخمر ، فلم يأتِ لي ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبّ ابنتي وضع في الخمر إثمها الذي وضعته فيها الشريعة ، فكرهتُها كُرْهاً شديداً ، وأصبحت كالمُكرَه عليها ، ولم تعدْ فيها

نشوتها ولا ريّها ؛ وكانت الصغيرة في تمزيق أخيلتها أروعَ من الشيطان في حَوْكِ هذه الأخيلة ، وكأنما جرّتني يدها جراً حتى أبعدتني عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعني فيها ، فانتقلت من الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة ، إلى الندم والتحوُّب والتأثم ؛ وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر وهممت به ، دبت ابنتي إلى مجلسي ؛ فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة ، فأرقب ماتصنع ، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تهرقها على ثوبي ، وأراني لا أغضب ، إذ كان هذا يسرّها ويضحكها ، فأُسرّ لها وأضحك

ودام هذا مني ومنها ، فأصبحتُ في المنزلة بين المنزلتين ؛ أشرب مرةً وأترك مراراً ، وجعلتُ أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوة بابنتي أكبرَ من النشوة بالزجاجة ، وإذ كنتُ كلما رجعتُ الى نفسي وتدبرت أمري ، أستعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكونَ قد نجّستُ أيامها ، ثم أتقدم الى الله وعليّ ذنوبُها فوق ذنوبي ؛ ويترحم الناسُ على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وُجدتُ في الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين

ومضيتُ على ذلك وأنا أُصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تمّ لها سنتان ماتت !

* * *

قال الراوي : وسكت الشيخ فعلقت به الأبصار ، ووقفت أنفاسُ الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لذكرِ موت الطفلة ، وخامر المجلسَ مثلُ السكر بهذه الكأس المذهلة ، ولكن الطفلة دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟ قال الشيخ : فأكدني الحزنُ عليها ، وَوَهَنَ جأشي ، ولم يكن لي من قوة الروح والايمان ما أتأسّى به ، فضاعفَ الجهلُ أحزاني ، وجعلَ مصيبتي مصائب . والايمانُ وحده هو أكبر علوم الحياة ، يُبصِّرُك إن عميتَ في الحادثة ، ويهديك إن ضللْتَ عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكونُ وإياها على المصيبة ، لا عدُوَّها تكون المصيبةُ وإياها عليك ؛ وإذا أخرجتِ الليالي من الأحزان والهموم عسكرَ ظلامِها لقتال نفسٍ أو محاصرتها فما يدفع المالُ ولا تردُّ القوةُ ولا يمنع السلطان ، ولا يكون شيء حينئذ أضعفَ من قوّة القويّ ، ولا أضيعَ من حيلة المحتال ، ولا أفقرَ من غِنى الغنيّ ، ولا أجهلَ من علم العالم ، ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوّة والعلمُ والغنى والسلطانُ — للايمان وحده ، فهو يكسر الحادث ويقلّل من شأنه ، ويؤيد النفسَ ويضاعفُ من قوتها ، ويَرُدُّ قدرَ الله الى حكمة الله ، فلا يلبثُ ماجاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضى بالقدرِ والايمان به ؛ كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها

قال الشيخ : ورجعتُ بجهلي الى شر مما كنتُ فيه ، وكانت أحزاني أفراحَ الشيطان ؛ وأراد — أخزاه الله — أن يفْتَنَّ في أساليب فرحه ، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان ، وكانت ليلةَ جمعة ، وكانت كأوّلِ نور الفجر من أنوار رمضان — سوّل لي الشيطان أن أسكر سكْرةً ما مثلُها ؛ فبتُّ كالميت مما ثملت ، وقذفتني أحلامٌ الى أحلام ، ثم رأيت القيامة والحشر ، وقد ولدت القبورُ مَن فيها ، وسِيقَ الناسُ وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية ؛ وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى ، فالتفتُّ فاذا بتِنِّينٍ عظيم ما يكون أعظم منه ؛ طويلٌ كالنخلة السحوق ، أسود أزرق ، يُرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم ، وفي فمه مثلُ الرماح من أنيابه ، وبجوفه حرٌّ شديدٌ لو زفر به على الأرض ما نبتتْ في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني ، فمررتُ بين يديه هارباً فزعاً ، فاذا أنا بشيخٍ هرمٍ يكاد يموت ضعفاً ، فعُذْتُ به وقلت أجرني وأغثني . فقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبّار ، ولكن مرّ وأسرع ، فلعل الله أن يسبِّب لك أسباباً للنجاة . فولّيتُ هارباً وأشرفتُ على النار وهي الهول الأكبر ، فرجعتُ أشتدُّ هرباً والتنين على أثري ؛ ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرتُ به فبكى من الرحمة لي وقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب الى هذا الجبل ، فلعل الله يحدث أمراً . فنظرتُ فاذا جبل كالدار العظيمة ، له كوّى عليها ستور ، وهو يَبْرُقُ كشعاع الجوهر ؛ فأسرعت اليه والتنين من ورائي ، فلما شارفت

الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور ، وأشرفت عليّ وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التنين مني ، وصرت في هواء جوفه وهو يتضرّم عليّ ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛ فتصايح الأطفال جميعاً : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم وثبت كرمية السهم ، فجاءت بين يديّ ، ومدّت إليّ شمالها فتعلّقت بها ، ومدّت يمينها إلى التنين فولى هارباً . وأجلستني وأنا كالميت من الخوف والفزع ، وقعدت في حجري كما كانت تصنع في الحياة ، وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت : يا أبت « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ »

فبكيت وقلت : يا بنيّة ، أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي . قالت ذاك عملك السوء الخبيث ، أنت قوّيته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمال ترجع هنا أجساماً كما رأيت .

قلت : فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به ولم يجرني ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يغيثك من عملك السيء ، ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فرّح بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شمال تتعلّق بها ، ويمين تطرد عنك

* * *

قال الشيخ : وانتبهت من نومي فزعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أراني أستقرّ ، كأني طريدة عملي السيء كلما هربت منه هربت به ؛ وأين المهرب من الندم الذي كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب ؟

وأمّلت في رحمة الله أن أربح من رأس مالٍ خاسر ، وقلت في نفسي : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمرٌ ما ينبغي أن يستهان به ؛ وصحّحت النيّة على التوبة ، لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمّن عظامه ، حتى إذا استجرت به أجارني ولم يقل « أنا ضعيف كما ترى ! »

وسألت فدُللت على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، سيّد البقية من التابعين ؛ وقيل لي : إنه جمع كلّ علم وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانه السحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره إنجيلاً لم ينزّل ، وإن أمّه كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي ، فترضعه أمّ سلمة تعلّله بثديها فيدرّ عليه ، فكانت بينه وبين بركة النبوّة صلة

وغدوت إلى المسجد والحسن في حلقته يقصّ ويتكلّم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس ، وما كان غير بعيد حتى عرتني نفضة كنفضة الحمّى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » فلو لفظتني الأرض من بطنها ، وانشق عني القبر بعد الموت — ما رأيت الدنيا أعجب مما طالعتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسر الآية ، فصنع بي كلامه ما لو بعث نبي من أجلي خاصة لما صنع أكثر منه

وكلام الحسن غير كلام الناس وغير كلام العلماء ؛ فانه يتكلّم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ؛ وناهيكم من رجل خاشع متصدّع من خشية الله لم يكن يُرى مقبلاً إلا وكأنه أقبل من دفن حميم قد أنزله في قبره بيده ، ولا يُرى جالساً إلا وكأنه أسير أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلّم الحياة بلسانه أصدق كلماتها

فصاح صائح : يا أبا يحيى ، التفسير التفسير ! وصاح المؤذّن : الله أكبر . فقطع الشيخ وقال : التفسير إن شاء الله في المجلس الآتي »

طنطا مصطفى صادق الرافعي

١ ـ الغزو الياباني الاقتصادي
لأسواق العـالم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يشعر العالم المتمدن اليوم بأن قوة جديدة خطيرة قد نزلت إلى الميدان الصناعي والتجاري ، وهــذه القوة تندفع إلى الأمام بسرعة مدهشة ، وتجرف أمامها كل حاجز وكل مقاومة ، وتضطرب لها جميع أسواق العالم شرقية وغربية : تلك هي قوة الغزو التجاري الياباني الذي تهتز أمامه اليوم معظم الأمم الصناعية والتجارية ، وترقب تفاقمه في خوف وهلع . ولقد كان هذا الغزو منذ عامين أو ثلاثة شديد الوطأة على بعض الأسواق الكبرى ، ولا سيما أسواق الامبراطورية البريطانية ، ولكنه اليوم يغدو مشكلة عالمية . فمن آسـيا إلى افريقية وأوربا وأمريكا الجنوبيــة يجتاح هذا الغزو المدهش جميع الأسواق القديمة ، ويلقي الذعر في دوائر الصناعة والتجارة العليا ، ويثير أينما حل كثيراً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية . ولقد حاولت الدول الصناعية والتجارية الكبرى أن تحد من أخطار هذا الغزو بجميع الوسائل الممكنة ، وفي مقدمتها الحماية الجمركية ، ولكنها لم توفق حتى اليوم إلى صده بطريقة ناجحة ؛ لأنه يعتمد في قوته واندفاعه على أسس اقتصادية محكمة ، ويتفوق بمزاياه المدهشة على كل منافسة ومقاومة ، ويتحدى كل إجراء لرده لا يستمد من نفس الأسس الاقتصادية التي يقوم عليها

وقد ظهرت طوالع هذا الغزو الياباني في المشرق بقوة : في الصين والهند وأفغانستان وفارس والبلاد العربية ومصر ؛ واجتاح الأسواق القديمة في الحبشة ، وفي شمال افريقية وفي جنوبها ؛ ثم اجتاح أسواق أمريكا الجنوبية ؛ كل ذلك بسرعة مدهشة لم تترك مجالاً للقيام بأية مقاومة منظمة ؛ ولم يكتف بمنافسة الصناعة الأوربية المؤثلة في أسواقها القديمة فيما وراء البحار ، ولكنه نفذ إليها في نفس مواطنها وغمر معظم الأمم الأوربية ذاتها ، وأصبحت البضائع والمنتوجات اليابانية من كل ضرب تتدفق عليها كالسيل ، وتنافس البضائع والمنتوجات المحلية منافسة الحياة والموت . ولمــا كانت قوة الأمم الغربية ورفاهتها وسلطانها السياسي والاقتصادي في افريقية وآسيا تقوم على صناعتها وتجارتها قبــل كل شيء فإنا نستطيع أن نتصور ما يثيره هــذا الغزو الياباني الخطر في معظم الأمم والحكومات الأوربية من عوامل الخوف والجزع

ونحن في مصر نشعر منذ حين بآثار هذا الغزو تنمو وتتسع بسرعة ، وتبدو واضحة فيما يهمر على سوقنا المصرية من صنوف البضائع والسلع اليابانية الرخيصة المغرية مع ذلك . وتشمل هذه المنتوجات اليابانية معظم الحاجات الشخصية والمنزلية ؛ من ثياب وأقمشة وحرائر وأحذية وخردوات وساعات وأدوات وآلات كهربائية وآلات حديدية وقاطعة ، وأنواع الآنية ، والأدوات الكتابية واللعب وغيرها مما لا يقع تحت حصر ؛ وقد ظهر أثر هذه المنافسة في بعض صناعاتنا الفتية مثــل صناعة الغزل إذ أخذت الأقمشة اليابانية القطنية والحريرية الرخيصة في منافسة منسوجاتنا منافسة قوية ، وكذلك صناعة الأحــذية فقــد أخذت الأحذية اليابانية تتدفق على السوق المصرية بأثمان غير معقولة . على أن أثر الغزو الياباني لا يقف في مصر عند هذا الحد ؛ وإذا كانت مصر لا تتمتع بصناعة واسعة يخشى عليها مباشرة من هذا الغزو ، فإنها يجب أن تخشى منه بحق على مستقبل محصولها الرئيسي وهو القطن الذي تستهلكه الصناعة الأجنبية وتحتاج إليه أشد الحاجة ؛ ومن الواضح أن مستقبل القطن المصري يتوقف على رخاء الصناعات التي تقوم عليــه وتستمد حاجتها منه ؛ ولمــا كان الغزو الصناعي الياباني قد أخــذ يهدد صناعة القطن في لانكشير ، وهي أعظم عميل للقطن المصري ، ويهدد الأسواق التي تعتمد عليها لانكشير في تصريف منتوجاتها ، فإنه يحق لنا في مصر أن نرقب سير هذا الغزو الياباني بمنتهى الاهتمام ، وأن نفكر فيما عسى أن يترتب على هــذا الصراع الاقتصادي الخطير بين الصناعات الأوربية القديمة وبين اليابان في حياتنا الاقتصادية من الآثار

وسنحاول في هذا المقال عرض الموضوع من الناحية العامة ، ودرس العوامل والأسباب التي مكنت اليابان من تنظيم غزوتها الاقتصادية المدهشة ، ومن النجاح في مغالبة الصناعات الأوربية الراسخة ، على حداثة عهدها بالنهضة الصناعية الحديثة

***

إن وثبة اليابان الحديثة ترجع إلى فاتحة هذا القرن فقط ، أعنى الى انتصارها الباهر فى الحرب التى خاضت غمارها مع الروسيا سنة ١٩٠٥ ؛ فقد كان أول نصر حاسم أحرزته فى العصر الحديث دولة أسيوية على دولة أوربيـة عظمى ؛ وكانت أوربا القديمة تعتقد قبل ذلك فى منــــاعتها ، وتوقن أن العصر الذى تستطيع فيه دولة شرقية أن تهزم دولة غربية قد انتهى إلى الأبد ، فجاء انتصار اليابان على روسيا مبدداً لهذا الحلم ؛ وشعرت اليابان بقوتها ومنعتها ، وازدادت ثقة بمستقبلها وحقها فى تبوإ مكانتها الحقة بين الدول العظمى ؛ ومن ذلك الحين تسير اليابان فى ميدان التقدم الحديث بخطى مدهشــة ، وقد كان هذا التقدم فى البدإ محصوراً فى آسيا ، أو بعبارة أخرى فى الشرق الأقصى ؛ ولـكن اليابان أخذت منذ نهاية الحرب الـكبرى تتجه نحو الغرب بخطى سريعة ؛ وكان الصراع بين اليابان والغرب يدور أولاً حول الغزو السياسى والأقتصادى للصـين ؛ فلما شعرت الأمم الغربيــة بأن نفوذها الأستعمارى القديم فى الصين أخذ يهتز ويضطرب أمام التقدم اليابانى أرسلت صيحتها ونذرها بالخطر الأصفر ، وحاولت أن تصبغ المعركة الأستعمارية الأقتصادية بصبغة جنسية ؛ ولـكن هذه المعركة التى تضطرم حول اقتسام الصين واستعمارها انتهت أخيراً بانتصار اليابان على الدول الغربية ؛ واستطاعت اليابان إلى جانب كوريا التى تملـكها منذ بعيد ، أن تغزو منشوريا وأن تستولى عليها ، وبذا أصبحت تملك فى الصين امبراطورية استعمارية شاسعة غنية بمواردها . ولم تقف اليابان عند هذا الحد ، بل أعلنت رداً على صيحة الخطر الأصفر ، مايشبه مبدأ مونرو الأمريكى ، وهو أنها تعتبر نفسها صاحبة الحق الأول فى استعمار الصين ، وأنها ستقاوم منذ الآن فصاعداً أية محاولة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها السياسى والأستعمارى فى الصين

ولما حققت اليابان برنامجها الأول فى الشرق الأقصى ، ضاعفت جهودها فى الاتجاه نحو الغرب ومنافسته فى ميادينه الصناعية والتجارية ، واستطاعت أن تنظم هذا الغزو الأقتصادى الجارف . ونستطيع أن نجمل أهم العوامل التى تعتمد عليها اليابان فى تنظيمه فى أمرين : الأول وفرة اليد العاملة ، والثانى رخص العمل والأجور بنسب مدهشة . وقد نما الشعب اليابانى فى العصر الأخير نمواً سريعاً ، وأضحى يبلغ اليوم خمسة وستين مليوناً فى جزائر اليابان وحدها ، هذا عدا كوريا وسكانها عشرة ملايين . ويزيد الشعب اليابانى فى العام مليونا ، وهى نســــبة مدهشة ؛ ويرجع احتشاد الشعب اليابانى فى جزائره على هذا النحو إلى كثرة النسل التى لم تتأثر بنظريات المدنية الحديثة ووسائلها فى ضبط النسل ، وعدم إقبال اليابانيين على الهجرة ، ووضع الأمم الغربية الحواجز فى سبيل هجرتهم . وتدل الأحصاءات الأخيرة على أن عدد اليابانيين المهاجرين لا يزيد عددهم على أكثر من سبعمائة ألف فى جميع أنحاء العالم . واليابانى ميال بالطبيعة إلى البقاء فى وطنه ؛ ومما يذكى هذه الرغبة فى نفسه نظام الملكية الصغيرة التى تسمره فى أرضه . وقد كان هذا الأحتشاد الهائل فى تلك الجزر الصغيرة وتعـذر سبل الهجرة من أكبر العوامل فى دفع اليابان إلى اعتناق الفكرة الصناعية ، والعمل على تحويل اليابان إلى بسيط شاسع من الصناعات الـكبيرة التى تستطيع أن تستغرق هذه الملايين العديدة وأن تمدها بالقوت . وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً عظيما ، حتى كان عدد المصانع يزداد فى العصر الاخير بمعدل مائة الى ثلثمائة فى العام الواحد . وكان عـدد هذه المصانع سنة ١٩١٧ يزيد قليلاً على ألفين ، فوصل فى سنة ١٩٢٩ الى ٥٩٨٨٧ مصنعاً ؛ ثم زاد فى الأعوام الأخيرة زيادة كبيرة

ومن الغريب أن اليابان استطاعت أن تقوم بهذه المعجزة الصناعية رغم كونها ليست غنية فى الموارد والمواد الأولية ؛ فهى فى الواقع تستورد كثيراً من المواد الأولية من الخارج . ولـكن اليابان غنية فى بعض المواد الحيوية كالفحم ، فهى تملك منه مقادير وافرة ، وتصـدر منه أحياناً ؛ وتملك أيضاً مقادير وافرة من البترول والحديد ، ولـكنها لاتفى بحاجتها . أما فى المواد الأولية الزراعية فاليابان فقيرة جداً ، وهى تستورد معظم ما تحتاج اليه من القطن والصوف والجلد وغيرها ، على أن هذا النقص لايمنع صناعتها من التقدم بخطى جبارة ؛ فقد استطاعت كما سنفصل بعد أن تأخذ المحل الثالث فى الصناعات القطنية بعد انكلترا والولايات المتحدة رغم كونها تستورد القطن من الخارج

ومن الطبيعى أن يؤدى احتشاد السكان ووفرة الأيدى العاملة الى رخص الأجور . ومسألة الأجور هذه إحدى معجزات

الصناعة اليابانية ونموها السابغة ، وهى معقدة متنوعة النواحى ؛ وتنخفض الأجور فى اليابان الى حدود غير معقولة ؛ وللعامل اليابانى « معيار للمعيشة » فى منتهى التواضع ، وليست له طلبات خاصة ، فهو قنوع جد القناعة لايطمح الى أكثر مما يحقق ضرورات العيش ، ولايفكر فى شىء من ألوان المتعة والترف التى يطمح اليها العامل الأوربى . وهو صبور لايحسب فى العمل حساباً للوقت ، وليس له تشريع عملى يحميه ، ولم يعرف بعد شيئاً من تلك النزعة العدائية التى تجعل العمل ورأس المال فى الغرب خصمين دائمين ، والتى تحفز الكتلة العاملة الى الجهاد المستمر فى سبيل حقوقها المادية والمعنوية . ومن الصعب أن نقدم بياناً رقمياً عن الأجور فى اليابان يمثل حقيقة ما يكسبه العامل ، لأن الأجور النقدية تدعم أحياناً بأنواع من المعاونات الخاصة ، كالتعويض عن العمل الزائد ، والمكافآت ، ثم الأجور النوعية كتقديم الطعام أو المسكن أو الثياب . ولكن يستدل من المباحث التى أجراها مكتب العمل الدولى أن متوسط أجرة العامل اليابانى تبلغ فى اليوم : (١) فى الصناعات الفنية ٢,٢٠ ين (١١ فرنكا ـ أو نحو ١٥ قرشاً) (٢) وفى المناجم ١,٨٠ ين (٩ فرنكات أو نحو ١١ قرشاً) ويبلغ متوسط ما تأخذه المرأة ١,٠٣ ين (نحو خمسة فرنكات أو سبعة قروش) . وهذه النسبة تعتبر مرتفعة بالنسبة لبعض الصناعات الخفيفة مثل صناعة الغزل حيث يبلغ معدل الأجور أقل من ين أو نحو أربعة أو خمسة قروش . وفى كثير من الصناعات لاتزيد مستوى الأجور على مستوى الأجور الزراعية العادية

وفى الصناعات الصغيرة يوجد نظام مشترك فى العمل والحياة يشبه نظام الأسرة ، ومما تجدر ملاحظته أن كثيراً من أصحاب المصانع فى اليابان لم يتأثروا بعد بنظريات الرأسمالية الغربية فى استغلال الفرد ، ومازالت تسود لديهم الفكرة العائلية القديمة فى اعتبار صاحب العمل والعمال الذين معه ، أسرة واحدة ترتبط برباط الأخوة والمصلحة المشتركة ، وفى كثير من المعامل الصغيرة يتناول العمال طعامهم فى المصنع ويقيمون فى مساكن يعدها لهم صاحب العمل ؛ ويقوم صاحب العمل بقسطه من العمل كباقى العمال ، ويتناول طعامه معهم ، ويعيش مثلهم فى نفس المسكن ، ولا يشعر العمال فى هذا الجو إلا أنهم مع سيدهم زملاء وإخوة ؛ وهذا النظام العائلى يعاون على الانتاج فى ظروف وتكاليف يسيرة لاتمكن منافستها على الاطلاق

ويرتبط بالعمل والأجور مسألة ساعات العمل ، وهى من العناصر الهامة فى تكاليف الانتاج . ومن المعروف أن الكتلة العاملة فى الأمم الغربيـة استطاعت أن تصل فى تخفيض ساعات العمل وفى تقرير أيام العطلة والأجازات الدورية الى نتائج مرضية جداً ؛ فالأسبوع الصناعى فى معظم الدول الغربية لايتجاوز اليوم ٤٢ ساعة ، ولا يتجاوز اليوم الصناعى ست ساعات أو سبعاً ، وللعامل يوم عطلة أسبوعى مقرر هو يوم الأحد ، وله فوق ذلك حق فى اجازة سنوية أو دورية معينة تختلف باختلاف الظروف ؛ وهذه الحقوق كلها مقررة بالتشريع ؛ أما فى اليابان فلا توجد فكرة التحديد فى الزمن ، وتدل المباحث الأخيرة على أن معدل اليوم الصناعى فى معظم الصناعات اليابانية لا يقل عن عشر ساعات ، على أنه لا توجد لذلك حدود أو قيود قانونية إلا فيما يتعلق بالنساء والأحداث ، فاليوم العملى لهؤلاء يجب ألا يزيد على إحدى عشرة ساعة ، والقانون يقضى بأن يمنحوا راحة مقدارها ساعة إذا زاد يوم العمل على عشر ساعات ، ولا توجد فى اليابان راحة أسبوعية للعمال كما فى أوربا ، لأن يوم الأحد هو عطلة نصرانية لا تقرها التقاليد اليابانية ؛ ولا تعرف هـذه التقاليد من جهة أخرى يوماً معيناً تخصصه للعطلة الأسبوعية . وقد كان فى مشروع اتفاق واشنطون ، فى المادة الخاصة باليابان أن يمنح جميع العمال على اختلاف طوائفهم عطلة أسبوعية قدرها أربع وعشرون ساعة ، ولكن اليابان لم تقر هذا الاتفاق . على أن المعامل الكبيرة اعتادت أن تمنح عمالها عطلة مقدارها يومان فى الشهر ، يوم فى منتصف الشهر ويوم فى نهايتـه ؛ على أنه لا توجد لذلك كما قدمنا قواعد ثابتة ، والعمال اليابانيون أنفسهم ينفرون من فكرة الراحة الدورية خوفاً من أن تنقص أجورهم تبعاً لتقريرها

ومما تقدم نرى أن الصناعة اليابانية تعمل فى ظروف مدهشة تستطيع معها غزو كل سوق وسحق كل منافسة ، وقد لخص

(١) الين وحدة العملة اليابانية وتساوى بسعر القطع الحالى ٥ فرنكات (ستة قروش ونصف)

كاتب اقتصادى وثبة اليابان الصناعية فى هذه الكلمات : « إن الأجور الصناعية فى اليابان سويت بالأجور الزراعية ، وغدت ثلث ما كانت عليه سنة ١٩٢٩ ؛ وأسبوع العمل ستون ساعة ؛ وقد يبلغ طبقاً لبعض الاحصاءات فى صناعة القطن مائة وعشرين ساعة ، وفى اليابان شعب يزيد فى العام مليوناً ، والعنصر البشرى يعنى به أ كثر مما يعنى بالآلات . . . وتلك فى الواقع مدنيـة صناعية جديدة تجمع بين النظم الفنية الأمريكية ورخص العمل الشرقى ، فمدير المصنع اليابانى يتناول مرتباً قدره (١٧٠٠ ليرة) (نحو ٣٠ جنيهاً) وهو خمس ما يتناوله زميله الأمريكى . وأثمان المنتوجات اليابانية أقل بنحو خمسـة وثلاثين فى المائة من أثمان منتوجات أى سوق أوربية أو أمريكية » . وأشار السنيور موسولينى فى إحدى خطبه أمام مجلس النقابات الصناعى إلى نهضة اليابان الصناعية بقوله : « هنالك فيما وراء الاطلانطيق تفتحت مشاريع صناعية ورأسمالية هائلة ؛ ولـكن ثمة فى الشرق الأقصى توجد اليابان ، وهى منذ أن اتصلت بأوربا فى حرب سنة ١٩٠٥ ، تتقدم نحو الغرب بخطى شاسعة »

ويجب أن نذكر ما لنشاط اليابان البحرى من أثر فى تنظيم هذا الغزو ، فلليابان أسطول تجارى ضخم يربطها بأوربا وأمريكا وجميع أنحاء العالم ؛ ويعمل هذا الأسطول لحمل التجارة اليابانية إلى ماوراء البحار فى ظروف مشجعة جداً ، ويصطبغ عمله بلون التعاون القوى لأنه يعتبر أداة قوية لنشر التجارة اليابانية تسخر كل قواها ونشاطها لتحقيق هذه الغاية

وسنحاول أن نبحث فى فصل آخر ما لهذا الغزو الاقتصادى اليابانى من أثر فى السوق المصرية وفى الاقتصاد المصرى ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

التاريخ الاســـلامى *

للأستاذ على الطنطاوى

هذه حياة نخمة . . . . ليست حياة واحد ، ولـكنها حياة أمة ، أمة حملت مصباح النور ، حين عمّ الـكونَ الظلام ، وأرشدت العالم التائه فى عُباب الجهل ، الى شاطئ العلم ، وكانت حضارتها المدرسة الثانوية التى خرّجت العقل البشرى وثقّفته ، كما خرّجته المدرسة الابتدائية اليونانية من قبلُ وثقفته . . . فـكان لها الفضل على كل إنسان !

حياة أبى بكر هى الصفحة الأولى من التاريخ الاسـلامى ، الذى بهر كل تاريخ وبذّه ، والذى لم تمحو تواريخ الأمم مجتمعة بعض ماحوى من الشرف ، والمجد ، والاخلاص :

ذلك لأنه تاريخ الـكمال الانسانى على وجه الأرض . . . . تاريخ المعجزة التى ظهرت فى بطن مكة على يد رجل واحد ؛ فلم تلبث حتى عمت مكة ، ثم امتدت حتى شملت الجزيرة ، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض . . . فـكانت أكبر من الأرض ، فامتـدت فى الزمان . . . . وستبلى الأرض ، ويفنى الزمان ، والمعجزة باقية :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ) — (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

ذلك لأنه تاريخ الاسـلام ، الذى بدا سرّه فى هذه الأمة البادية الجاهلة المتفرقة ، فجعل منها أمة لم يكن ولن يكون لها نظير ... امتزجت روح الاسلام بأرواح المسلمين وغلبت عليها ، ثم استأصلت منها حبّ الدنيا ، وانتزعت منها الطمع والحسد ، والغشّ والـكذب ، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصـة البشر ، وغاية مايبلغه السمو الانسانى . . . .

أنشأت من أصحابها قوماً يغضبون لله ، ويرضون لله ، ويصمتون لله ، وينطقون لله ، قد ماتت فى نفوسهم الأهواء ، وبادت منها الشهوات ، ولم يبق إلا دين يهدى ، وعقل يستهدى

* مقدمة كتاب فى سيرة أبى بكر الصديق سينشره الأستاذ فى ١٥ فبراير سنة ١٩٣٥ فى أكثر من ٣٠٠ صفحة

قوم كان دليلهم الدين ، وقانونهم هدى سيد المرسلين ، وشعارهم شعار المساكين ، وعيشهم عيش الزاهدين ، ثم كانت فتوحهم فتوح الملوك الجبارين ، وكانوا سادة العالمين ؛ لم يمنعهم زهدهم من أن يكونوا أبطال الحروب وسادة الدنيا ، ولم يفتنهم ما نالوا من مجد ، وما بلغوا من جاه ، عن دينهم وتقواهم

قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً ، فيلبث سنة لا يختصم اليه اثنان !(١) ولم يكونوا ليختصموا وبين أيديهم القرآن ، وكل واحد منهم يعرف مايحق له ، فلا يطلب أكثر منه ، ويعرف ما يجب عليه فلا يقصر فى القيام به ، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويسعى ليسلم الناس من لسانه ويده : إذا مرض المسلم عاده المسلمون ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا أحسن شكروه ، وإذا ظُلم نصروه ، وإذا ظلم ردعوه ، دينهم نصيحة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ففيم يختصمون ؟

أما إنهم لا يختصمون إلا على مكرمة وإحسان ، ولقد كان عمر يتعاهد عجوزاً عمياء ، فى بعض حواشى المدينة ، فكان يجيئها سحراً ، فيجد امرأً قد سبقه اليها فبرّها وأحسن اليها ، واستسق لها وأصلح من أمرها ، فيعجب منه ويزيد فى البكور ، فلا يسبقه ، فرصده مرة من أول الليل ، حتى جاء فاذاهو . . . . أبو بكر الصديق ، وهو يومئذ خليفة(٢)

أبو بكر وعمر يستبقان إلى برّ عجوز عمياء ، فى بعض حواشى المدينة . . . الله أكبر ! عقمت أم التاريخ أن تلد مثل هذا التاريخ الذى يأتى بسيد الأمة ، فى ثوب خادم الأمة ، حتى يفتش فى الليل عن عجوز عمياء ، أو رجل مقعد ، أو أسرة محتاجة ، أو مظلوم ضعيف ، أو ظالم عاتٍ — ليخدم العجوز ، ويحمل المقعد ، ويساعد المحتاج ، وينصر المظلوم ، ويأخذ على يد الظالم ، لا يبتغى على ذلك جزاء ولا شكوراً ، لأنه يعمل لله ، ولا يرجو الثواب من غير الله . . .

الله أكبر ! ضل قوم زعموا أن الاسلام إنما انتشر بالسيف ، لا والله ! إنما انتشر بمثل هــذه الأخلاق السماوية ، إنما فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، بهذا الايمان الذى ملأ قلوبهم ، وهذا النور الذى أشرق على نفوسهم ، وهذه القوة التى عادت بها عليهم عقيدة التوحيد :

علموا أن الله هو الفعال لما يريد ، وأنه المتصرف فى جميع الأكوان ، وأن كل شيء بقضاء منه وقدر ، وأنهم إن غُيب عنهم القدر ، وخفى عليهم علمه ، فقد أُنزل عليهم القرآن ، ووضح لهم سبيله فاتبعوا القرآن ، ووقفوا عند أمره ونهيه ، فكتبوا فى سجل القدر من السعداء

والمؤمن الذى يعلم أن الله هو الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وأنه لا يجير عليه من نبي ولا رسول ، ولا يشفع عنده إلا باذنه ، وليس بينه وبين العبد واسطة ولا نسب ، ويعلم أن الله ينصر من ينصره ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لا يسأل إلا الله ، ولا يستعين إلا بالله ، ولا يبالى بشيء إذا كان مع الله ، ولا يطمع فى جوار أحد إذا كان جاراً لله ، ولا يحفل بالدنيا وما فيها إذا باع نفسه من الله راضياً مختاراً ، بأن له الجنة . .

***

كانت هــذه العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون الأولون ، وكان وهنها فى النفوس أصل كل شرّ نال المسلمين المتأخرين الذين أفسدوا عقيدة التوحيد بما شرعوا لأنفسهم من البدع والعقائد ، فتفرقوا أيدى سبا ، وذلّوا فى أرضهم ، وهوجموا فى عقر دارهم ، وحفظ المسلمون الأولون على هذه العقيدة صفاءها وجمالها . ففتحوا ما فتحوا ، وكان فتحهم أعجوبة التاريخ ، يقف أمامها العقل خاشعاً للعظمة والجلال ، حائراً للغموض والخفاء :

أمة بدوية على غاية ما تكون عليه الأمم البادية من الخلاف والجهل ، لا دين يوحد قبائلها ويهذب من نفوسها ، ولا جامعة تجمعها ، ولا حكومة تدير أمورها ، اللهم إلا حكومة فى العراق تخضع لملوك العجم ، وحكومة فى الشام تطيع ملوك الروم وتلبث على ذلك عصوراً . . . ثم تنهض نهضة الأسد ، تحمل فى يمناها نور القرآن ، تضيء به للشعوب طريق المجد فى الدنيا ، والسعادة فى الأخرى . وفى يسراها السيف تردّ به الضالين المعاندين ، المصرّين على الضلال ، إلى سبيل الحق والهدى

ويبدو فيها سر الاسلام بيناً جلياً ، فاذا هــذا التفرق وهذه

(١) الأمير أبوبكر والقاضى عمر رضى الله عنهما
(٢) منتخب كنز العمال قال : رواه الخطيب عن أبى صالح الغفارى

الجاهلية ، أخوة في الاسلام ، وتمسك بالفضائل ، وإذا هـذا الضعف قوّة لا تعدلها قوّة ، وإذا هذه الحمية الجاهلية تواضع لله ، ورضا بأحكامه ، ونزول عند أوامره ونواهيه ، وإذا بدوى من بنى وُهيب[١] يكون بسر الاسلام — قائداً من أعظم قواد الدنيا — يهدُّ أقوى صرح للظلم ، ويدك أكبر بنيان للجور على وجه الأرض ، ويغرس في (القادسـية) مكان الجبروت الفارسي بذور الحضارة الاسلامية التي نمت وأزهرت حتى أظلت الدنيا

وإذا بدويّ قاسٍ غليظ من بني عديّ[٢] يكون بسرّ الاسلام عظيماً من عظماء التاريخ ، يبرّز في العلم والسياسة والبلاغة ، ويكون له القدح المعلّى ، في فنون الفكر ، وفنون الحرب ، وفنون القول ، ويسوس وحده الجزيرة وسورية والعراق ومصر وإفريقية فلا يعرف التاريخ أعـدلَ ولا أقومَ ولا أفضلَ منه — حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار

. وإذا تاجر من تجار مكة[٣] يكون بسرّ الاسلام ، أعظم العظماء ، بعد الأنبياء

* * *

هذه أعجوبة التاريخ ، وهذا هو الفتح الأعظم !

أجل ! إن الفتح الاسلامى لهو الفتح الأعظم ، الذى لم يعرف التاريخ فتحاً مثله . وكثيرٌ هم الفاتحون ، الذين فتحوا بلاداً واسعة بسيوفهم ، وأخضعوها بجنـــدهم ، وحكموها بقوتهم وسطوتهم ، ولـكن ليس فيهم مثل المسلمين ، الذين فتحوا البلاد بإيمانهم ، وفتحوا القـلوب بعدلهم ، وفتحوا العقول بعلمهم ، فـكانوا أصحاب السلطان ، وكانوا دعاة الايمان ، وكانوا بُناة المجد والحضارة والعمران

طبّقوا في القرن السابع قواعد الحرب الانسانية — التى علمت بها أوربة في القرن التاسع عشر وسمت إلى تطبيقها في القرن العشرين ، فلما لم تفلح وغلبت طباعها الذئبيـة على إنسانيتها المصطنعة ، اكتفت منها بتسطيرها في كتب الحقوق الدولية وأخذ المجدّدون من الشرقيين . . . يبريقها ولمعانها !

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، ولـكنا كنا نحمل العلم

(١) سـعد بن أبي وقاص رضى الله عنـه (٢) عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٣) أبو بكر رضى الله عنه

والهدى ، والعدل والغنى ، إلى البلاد التى نفتحها ، وكنا لا نعمد إلى الحرب إلا إذا اختار أعداؤنا الحرب ، وأبوا أن يلبو داعى الله — ثم لا نخون ولا نغدر ، ولا نغل ولا نمثل ، ولا نقتل رسولاً ولا نهدم منزلاً ، ولا ننازل أعزلاً ، ولا نهيج معتزلاً ، ولا نمس عابداً متبتّلاً[١]

ثم إذا صالحنا أعداؤنا ، ودخلوا في ذمتنا ، حميناهم مما نحمى منه أولادنا وأهلينا ، وإذا أسلموا كانوا إخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، لا يفرّق بين المسلمين عرق ولا لغـة ، ولا جاه ولا نسب ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى[٢]

فأين هذه الفتوح من فتوح الاستعمار التى أثارتها أوربا ؟ فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً في دينهم ومعابدهم ، أحراراً في قضائهم ونظمهم ، أحراراً في أموالهم وأولادهم ، فملكنا بالعدل قلوب الناس ، وأسعدناهم بالعلم ، وبسطنا عليهم ظلال الأمن ، ونشرنا فوقهم لواء الحضارة ، حتى لقد صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم ، ويبذلون لهم عونهم على ملوكهم[٣] لا بغضاً لملوكهم ولا عداء لأوطانهم ، ولـكن حباً في العدل ، ورغبة في السلام ، وشوقاً إلى العلم والحضارة والعمران

فتحنا الحيرة فأهدى أهلها طائعين مختارين هدية إلى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزية عدلاً منه وتعففاً ، وخشية أن يظلم أهل ذمته ، أو أن يكلفهم شططاً ، وتفتحون البـلاد فتبتزّون

(١) هذا مضمون وصية أبى بكر لأسامة وجيشه حين بعث به إلى الشام

(٢) أى إن الوطنية في الاسلام هى الدين ، والأخوة أخوة الاسلام . أما هذه البدعة الجديدة ، بدعة القوميات التى فرقوا بها بين المسلمين ، وقالوا : تركى وعربى ، ومصرى وعراقى ، فلا تتفق والاسلام في شئ — والغرب نفسه بدأ يعدل عن الجامعة القومية الضيقة إلى جامعة إيمانية واسعة ، أى إنه بدأ يرجع لقواعد الاسلام . وهاكم الفاشية والنازية والبلشفية ، بل هاكم الماسونية ذاتها

(٣) كما وقع في حمص أثناء الفتح ، وفى الأندلس من بعد : روى البلاذرى في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلـكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينـة مع عاملـكم ، ونهض اليهود وقالوا : والتوراة ، لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب عليها ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

أموالها ابتزازاً ، وتمتصون دماءها امتصاصاً ، وتمدون أيديكم إلى كل خير فيها

هكذا كانت فتوحنا وهذه فتوحكم :

مَلَكْنَا فَكَانَ ٱلْعَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً
فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالدَّمِ أَبْطَحُ
وَحَلَّلْتُمُ قَتْلَ ٱلْأَسَارَى وَطَالَمَا
غَدَوْنَا عَلَى ٱلْأَسْرَى نَمُنُّ وَنَصْفَحُ
فَحَسْبُكُمُ هٰذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا
فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

* * *

ولم يظهر سر الأسلام فى الفتوح ، وفى الخلفاء والأمراء فقط ، بل لقد ظهر فى المسلمين جميعاً ، فجعل من نفوس النساء والعجائز والأطفال مناراً يهتدى به الناس ، ومثلاً أعلى للنفوس الكبيرة ، حتى أن أبا بكر ليقسم مالاً بين النساء ، ويبعث إلى عجوز من بني النجار بقسمها من هذا المال ، مع زيد بن ثابت فتقول :

ـ ما هذا ؟ ـ فيقول : مال قسمه أبو بكر بين النساء

ـ فتقول : أترشوننى عن دينى فيقول : لا

ـ فتقول : أتخافون أن أدع ما أنا عليه ؟ ـ فيقول : لا

ـ فتقول : والله لا آخذ منه شيئاً (١)

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لم تسلم رغبة ولا رهبة ، ولكنها أسلمت لله ، فهى تبتغى ما عند الله

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لا تحب أن يدخل بينها وبين ربها فيشغلها عن الأخلاص لدينها ، ويطمعها المال فى المال ، فتزيد فى العبادة ، وتبالغ فى التدين ، فتكون كأنما تعبدت للمال ، وعقيدة التوحيد ، التى استقرت فى نفس هذه العجوز ، كما استقرت فى كبار الصحابة وعلمائهم ، تدفعها إلى أن تعمل لله وحده ، وتسأل الله وحده ، وتؤمن بالله وحده

وتجتمع فئة من المسلمين معارضة تريد أن تستأثر بالحكم ، لأنها ترى لها فيه حقاً ، ولا تقبل فى ذلك هوادة ، ثم يأتيها ثلاثة رجال من الفئة التى تعارضها ، وتجتمع لتناوئها ، فترجع عما اعتزمته بكلمة واحدة تبصر فيها ضياء الحق

(١) ابن سعد فى الطبقات

قال عمر للأنصار يوم السقيفة :

ـ ألستم تعلمون أن رسول الله صلى عليه وسلم قدم أبا بكر للصلاة ؟

ـ قالوا بلى

ـ قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ـ قالوا : لا أحد !

ـ ثم قاموا يبتدرون البيعة (١)

فأين هذا من منازعات الأحزاب على الحكم فى الدول الراقية فى القرن العشرين ؟ وأين ديمقراطية أوربة ودعواها الخلاص من الحكم الفردى من ديمقراطية المسلمين الأولين ؟

أما إن استبداد لويس الرابع عشر ، هو استبداد روبسبير ، وهو هو استبداد هتلر ، لم تنجُ أوربة من الأستبداد فى الحكم يوماً واحداً ، ولم يحقق النظام البرلمانى شيئاً من أمانيها الديمقراطية ومبادئها البراقة التى تخدع بها الأطفال الكبار من الشرقيين (٢)

أما نظام الحكم فى الأسلام ، فهو النظام الديمقراطى الصحيح ، الذى لا يجعل من أمير المؤمنين أكثر من منفذ للقانون الالـهى الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو أبعد شيء عن النظام الملكى الوراثى . وكان المسلمون الأولون يفهمون هذا النظام أصح فهم وأجوده ، وكان العامل من عمالهم يعلم أنه إنما يسأل عن عمله بين يدى الله ، وإنما يقوم به لمصلحة المسلمين لا لرضاء أمير المؤمنين ، وقد يسألون فى ذلك حتى أن معاذ بن أيمن يقدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له أبو بكر : ارفع حسابك . فيقول : أحسابان : حساب من الله وحساب منكم ؟ والله لا ألى لكم عملاً أبداً (٣)

ويطلب أمير المؤمنين عثمان من خازنه مالاً ، فيأباه عليه . فيقول : « إنما أنت خازن لنا ، إذا أعطيناك فخذ ، وإذا سكتنا عنك فاسكت »

(١) رواه النسائى والحاكم وصححه

(٢) يقول ذلك الأستاذ جيز أحد جهابذة الحقوق العامة الفرنسية ويثبته بالحجج والأرقام ؛ فى مقال له ممتع ، فى الصفحة ٢٦٦ من العدد الثانى من مجلة الحقوق العامة والعلم السياسى فى سنة ١٩٢٧ . وهذا المقال صفعة قوية لأنصار هذا النظام

(٣) عيون الأخبار

كيف صرف الله

عنى السوء ؟

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

اشتهيتُ أن أقول الشعرَ فى الأسبوع الماضى ، بعد أن فطمتُ قلبى عنه سنوات وسنوات ، فدخلت مكتبتى — أعنى غرفتها لا رفوف الكتب فيها — وأغلقت الباب ، وقلت لنفسى « الآن ، أمنت أن يزعجنى هؤلاء الأطفال اللاعبين ويُطيروا عقلى — أو ما بقى لى منه ، وهو قليل — بضجاتهم وكراتهم وزماراتهم وأسئلتهم التى لا تنتهى ، ومشاكلهم المويصة التى لا تحل ، واستبدادهم الذى لا يطاق . إنهم أطفال جديدون وأنا رجل قد شيّخت ، وهم حركة دائمة ، وأنا فتور يزداد على الأيام ، وسينتهى — عاجلاً أو آجلاً ، بل آجلاً إن شاء الله — إلى الركود . وهم استعداد مطلق ، وأنا نطاق محدود . وكيف بالله أطيق ان أظل ألاعبهم الكرة ، أو أجاريهم فى الزمر والوثب والصياح ؟؟ وما صبرى على هذه الأسئلة التى ليس لها عندى جواب ؟؟ سألنى أحدهم — أصغرهم —

« بابا . . . »

فيقول الخازن لأمير المؤمنين : « ما أنا لك بخازن ، ولا لأهل بيتك ، إنما أنا خازن المسلمين : ثم يجىء يوم الجمعة وأمير المؤمنين يخطب فيقول « أيها الناس : زعم عثمان أنى خازن له ولأهل بيته ، وإنما كنت خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيح بيت مالكم » ويرمى بها . . .

* * *

هذا هو تاريخ المعجزة التى جاء بها سيد العالمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو تاريخ الانسانية الكاملة ، تاريخ المسلمين الأولين ، خلاصة البشرية . فطالعوه يا شبان المسلمين ، وتدارسوه ، واسموا لتكتبوا هذا التاريخ مرة ثانية على صفحة الحياة . . وتقولوا للعالم بأفعالكم لا بأقوالكم : نحن أبناء أولئك الآباء . .

على الطنطاوى

قلت : « نعم »

قال : « هل أنت بابا ؟ »

قلت : « نعم ، وأمرى إلى الله يابنى »

قال : « صحيح ؟ »

قلت : « أو يخامرك شك ياملعون ؟؟ أم لا يعجبك أبوك ؟؟ »

فجعل يردد كلمة « بابا » مستغرباً ثم سأل « يعنى ايه ؟ »

فلم أجد عندى جواباً حاضراً لسؤاله ، وعالجته ، وحاورته وداورته حتى انصرف عن هــذا الموضوع ، ولـكنه لم ينسه ، فهو يكر علىّ به كل بضعة أيام . فمن كان يعرف لسؤاله هذا جواباً مقبولاً فليسعفنى به ، وله الثواب من الله

وسألنى مرة ، ونحن على السفينة الذاهبة بنا إلى بيروت :

« هذا هو البحر ؟ »

قلت : هو بعينه — أعنى بموجه »

قال : « هل للبحر حنفية ؟ »

قلت : « لا »

قال : « لماذا ؟ »

فهربت من الجواب لأنه طويل ، وكان بى كسل فى تلك الساعة ، فعاد يسأل :

« ماذا يحدث إذا وقعتُ فيه ؟ »

قلت : « تغرق فتموت »

قال : « يعنى أكون كالسمك الذى فيه ؟ »

قلت : « كلا . إن السمك الذى فيه حى ، أما أنت وأنا فانا نموت إذا وقعنا فيه ، لأنا لا نعرف السباحة ، ولم نخلق لنعيش فى الماء كالسمك »

قال : « نموت كيف ؟ »

قلت : « نموت يا أخى ! سبحان الله العظيم ! »

قال : « ولـكنى أريد أن أعرف »

قلت : « أنا لم أمت ، فكيف أعرف ؟ »

قال : « بابا »

قلت : « ياساتر استر . نعم يا سيدى ! »

قال : « أريد منك شيئاً »

قلت : « على العين والرأس ياحبيبى ، قل يا سيدى . تفضل يا روحى ! »

قال : « لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « لأنى أعرف أنك ملعون خبيث »

قال : « لا . . . » وضحك « إنما أريد أن أراك »

قلت : « وهل عميت ؟ ألست تراني أمامك ؟ »

قال بسرعة : « لا لا لا . . . إنما أريد أن أراك ، فى . . . فى الماء ! »

قلت : « تعال إلى الحمام ، فان فيه حوضاً عظيماً »

قال : « لا » ممطوطة ، بازدراء ، « فى البحر . . . »

قلت : « يعنى تريد أن أغرق ، وأموت ؟ »

قال : « آه ! لأجل خاطرى . ألست تحبنى ؟ »

فلولا أن أدركتنى أمه ، لوجب علىّ أن أغرق تحت عينه . وهكذا إلى آخر ذلك إن كان لما يتقاضانى آخر يعرف

فقالت لى نفسى : « اسمع يامازنى . انك قليل العقل ، مافى هذا شك »

قلت : « أشكرك . فهل تسمحين أن تبيني السبب ؟ »

قالت : « نعم . هـذا أنت تخلو بى ، لتنظم شعراً ، فبدلاً من أن تتناول القلم وتكتب ، تذهب تتمثل مايدور بينك وبين أولادك ، فتضيع الوقت فى غير طائل ولا تصنع شيئاً . فاذا لم تكن هذه قلة عقل فانه يسرنى أن أعرف ماذا هى ؟ »

قلت وأنا مغيظ : « استدراك ! إنى لا أخلو بك لأقول الشعر ، أعنى أنك ــ ولا مؤاخـــذة ــ لست الباعث على قول الشعر »

قالت : « لا تكن قليل الذوق أيضاً ! »

قلت : « إنها الصراحة والحق ، لا قلة الذوق . ثم إنك مخطئة . فانى لم أدخل هذه الغرفة لأنظم شعراً ، بل إنى اشتهيت هذا ، فأنا أريد أن أهتدى إلى الوسيلة التى تعيننى عليه »

قالت : « الوسيلة ؟ أية وسيلة ؟ تناول القلم واكتب ! »

قلت : « بإسلام ؟ ما أذكاك ! لو كان هـذا كل ما يتطلبه قول الشعر لما عجز أحد عنه »

قالت : « إذن ماذا تبغى ؟ »

قلت : « اسمعى أقل لك . . . إنى أصفيت ، أو على الأصح انقطعت عن النظم لأنك خلية ، فأنا أريد الآن أن أشجوك ، أعنى أن أملأك »

قالت : « كيف ؟ فانى غير فاهمة ؟ »

قلت : « لك العذر ، فقد صرت كالصحراء ، التى نسيت الماء من طول ما انحبس عنها »

قالت : « ألا تقول وتوجز ؟ »

قلت : « إذن أقول إنى أريد أن يعمر قلبي الحب ، وبعبارة أخرى أقرب إلى فهمك الكليل ، أريد أن أحب »

قالت : « تريد ؟ هه ؟ »

قلت : « آه أريد ! وأى غرابة فى ذلك ؟ »

قالت : « لا فائدة من الخلاف فانك مكابر ، وماذا تنوى أن تصنع ؟ »

قلت : « أنوى ؟ ليس أسهل من ذلك ! أدور بعينى حتى تقع على واحدة تستحق أن أحبها ــ هذا ما أنوى أن أصنع »

فمطت شفتيها ــ مجازاً ــ وأشاحت عنى بوجهها ، فقلت فى سرّى ، والله لأغيظنّها ! وخرجت ألتمس الحبّ ، وأدور بقلبي على النساء ، وأفتحه لمن شاءت أن تقع منهن فيه ، وكنتُ مستعداً ــ لأكيد لنفسى ــ أن أحب عشرين امرأة دفعة واحدة ، ولم لا ؟ إن كل ما يعنينى ، وما أبغيــه ، هو الحب ، لا المرأة ، وأثره لا وسيلته وأداته ، فكلما كانت النار أقوى ، واللهب أعلى كان ذلك خيراً لى ، ثم إنى أريد أن أجرب كل حب ، أعنى الحب من كل صنف ، ولون ، حتى الذى يعقب الخبل ويورث الجنون ، والذى يحرق الثياب ، ويترك القلب عارياً

وصرت كلما رأيت سرباً من الفتيات ، أقول لهن

« ادخلن يافتيات ! »

فيقلن : « أين ؟ »

فأقول : هنا فى قلبى . إنه عظيم ! شىء مهول جداً . يسكن جيعاً ويسع مائة من أمثالكن . البدار البدار ، فانها فرصة لا تعوض

فيتضاحكن ويعضين عنى ــ لا أدرى لماذا ؟ كأنما لهن طلبة فى الحياة غير الحب ، أو سبيل إلى طلبتهن غيره ؟

وألاقى غيرهن . فأدق الناقوس ، وأستوقفهن وأسألهن :

« ما قولكن ؟ »

فيقلن : « فى أى شىء ؟ »

فأقول : « فى أن أحبكن جملة ؟ »

فيقلن : « مجنون ؟ »

فأقول : « أطمئنى . فانى أعرف ما لا تعرفن ! هذا قلبى قد فتحته لـكن ، على آخره ، فادخلن فيه ، أنتن ومن تخترن غيركن من صواحباتـكن ، فلن يضيق بكن ، فانه أعمق وأرحب من البحر الأعظم . . . أزخرنه لى ، وغصن فى أعماقه ، وامددن لى أيديكن بالدر المكنون الذى لا تبلغه يداى »

فيمضين عنى ولا يعبأن بى ، فيهبط قلبى ، وتفتر دقاته ، وتهى نبضاته ، وألمح النفس تبتسم ابتسامة الشماتة ، فيستفزنى ذلك ، فأكر إلى البحث

ولا أطيل ...لقيتُ آخر الأمر فتاة قالت لى :

« هل تريد أن أحبك ؟ »

قلت : « لا ... إنما أريد أن أحبك أنا »

قالت : « وماذا عنعك ؟ »

قلت : « صحيح ! أما والله إنى لمغفل ! وماذا منعنى أن أحب نساء الدنيا كلهن ؟ ؟ أم ترانى كنت أحسب أن الأمر يحتاج إلى استئذانهن ؟ »

فقالت وهى تضحك : « أنت تحبنى ــ هذا حسن .. »

فقاطعتها قائلاً : « لاتغلطى يافتاتى ، إنى «أريد» أن أحبك »

قالت : « لا بأس . أنت تريد أن تحبنى ، هذا حسن ، وأنا ماذا أصنع بنفسى ؟ »

قلت : « لاشىء . أو إذا شئت ، فان فى وسعك أنت أيضاً أن تحبينى »

فضحكت وقالت : « أهو شىء بالأرادة ؟ »

قلت : « إنك سخيفة كنفسى ، ولا مؤاخذة ! »

فقالت : « ولماذا تريد أن تحب ؟ »

قلت : « لأنى أريد أن أقول شعراً ، وعلى أن هذا شىء لا يعنيك ، فدعينى وما أريد ، والباقى علىَّ ، فلن يكلفك شيئاً »

* * *

فتركتنى لرأيى ، وجعلت وكدى بعد ذلك أن أحبها ، وذهبت أقنع قلبى بأنه قد أصبح عامراً ــ ولـكن نفسى ــ قبحها الله ، أو زادها قبحاً ــ كانت تخرج لى لسانها هازئة ، فيهيجنى هذا منها ، ويسخطنى عليها ، فأغافلها أحياناً وأتحسس قلبى بيدى لأستوثق ، وأضع راحتى على بطنى لعلى أشعر بالنار التى يجب أن تكون مضطرمة فيها ، فلا أحس أن النبض أسرع أو أقوى ، ولا ترتد راحتى إلا باردة كما كانت . فأقول لفتاتى :

« إسمى . هاتى أذنك ، فانى أخشى أن تسمعنى نفسى فتشمت بى »

وأسر إليها انى لا أحس شيئاً من مظاهر الحب ، وعلاماته ، فأنا آكل كالنهوم ، وأنام كأنى حقنت بالمورفين ، ولا أرانى أفكر فى شىء غير مايتفق أن أكون فيه ، . . . لاخفقان فى القلب ، ولا اضطراب فى الصدر ، ولا شوق ، ولا شىء مما يصفه المحبون غيرى ، بل أنا أنسى اسمك ، وأسميك كل يوم ، كما تعرفين ، اسماً جديداً ، فأى حب هذا ؟ خبرينى !

فقالت : « لا أدرى — هو حبك ، على طريقتك ، إذا كان صحيحاً أنك تحب »

فأسألها : « ولـكن هل تظنين أنى أحب ؟ »

فتقول : « وكيف أعرف أنا ؟ »

فأسألها مستغرباً : « ألم يقولوا إن بين القلب والقلب رسولاً ؟ فكيف ضل الرسول يا ترى ؟ »

فتقول : « لم يأن أن تحب ياصاحبى . ولست بفتاتك على ما أرى ؟ »

فأقول : « ولـكنك الفتاة الوحيدة التى وافقتنى على مااقترحت ؟ »

فقالت : ــ وأدهشتنى ــ « نعم . وافقت ورضيت ، بأن تحبنى إذا شئتَ ، فبقيت أنت لا تحب ، ووقفتُ أنا »

فصحت بها : « ايه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت ــ بهدوء ــ : « لقد سمعت . . . . »

قلت : « أعيديه على مسمعى . . . »

قالت : « كلا . . . هكذا أحلى ! »

فكاد الفرح يذهب بلبى ، فما عرفت أن أحداً أحبنى فى هذه الدنيا مذ جئت إليها ، ولا ذقت فى حياتى هذه اللذة ، ولم يكن ذنبى أنى حرمتها ، ولا ذنب النساء أيضاً ، وأحسب أن عيونهن تتخطانى ــ لقصرى ــ فلا يريننى ، ولو رأيننى لأحببننى بلا شك ــ كما فعلت هذه الفتاة الـكريمة ، بعد أن جلستم !

وعدت إلى بيتى ، وخلوت بنفسى فى المكتبة ، وقلت لها وأنا أكاد أرقص « والآن يانفسى ، يمكنك أن تعلقى من الغيظ وتنفلقى من الـكمد » وأحسست بالشعر يجيش فى صدرى ،

وشعرت كأنه ليس عليّ إلا أن أدهور لسانى فى شدقى ، أو أن أرفع سن القلم على الورقة ، فاذا به يجرى وحده بالكلام المونق المعجب

وجئت بورقة ، وبريت القلم ، ووضعت تلك على رجلى ، وهذا بين أصابعى ، وتوكلت على الله ، وألقمت القلم على الورقة ، وإذا بنقر على الباب ، فكدت أجن ، ونهضت ففتحته بكره فدخل صاحب لى فلما رأى تجهم وجهى قال :

« هل أنت مشغول ؟ »

قلت : « تسأل البحر هل فيه ماء ؟ »

قال : « معذرة . على كل حال لن آخذ من وقتك إلا دقائق ، إنك تعرف . . . »

وذكر اسم الفتاة — فتاتى التى تحبنى بارك الله فيها — فصحت به « إيه ؟ »

فقال : « إنى أتكلم بلغة عربية فيما أظن ؟ »

قلت : « ألا توجز ؟ مالها ؟ »

قال : « حسن . سأوجز . إنى سعيد »

قلت : « وأنا مالى ! »

قال : « هنئنى ! »

قلت : « بماذا ؟ »

قال : « لقد قابلتها — للمرة الثالثة — ولم أخبرك لأنه لم يكن هناك مايستحق أن يقال . ولكنها اليوم قابلتنى — أعنى استقبلتنى بعد أن خرجت أنت من عندها ، فكان مما قالته لى « إنك شاب ، وأنا شابة ، وأنا أصبو اليك كما تصبو الىّ ، صحيح أنى أقول لبعض معارفى من الكهول إنى أحبهم ، ولكنى مضطرة الى هذا لأحتفظ بودهم ، أما أنت فشىء آخر — أنت شاب مثلى ! »

فما قولك فى هذا ؟ »

قلت : « قولى ؟ أنا ؟ »

قال : « نعم . ما رأيك ؟ »

قلت : « صدقها ! »

فسألنى : « هل كذبت عليك يا ترى كما كذبت على غيرك ؟ »

قلت : « علىّ أنا ؟ لا ! وهل يستطيع أن يخدعنى أحد ؟ والآن اذهب . . . . »

قال : « بسرعة ؟ هكذا ! »

قلت : « نعم فانى أريد أن أمزق دواوين الشعراء التى عندى »

قال : ألا يكفيك أن تكف أنت عن الشعر ؟ »

قلت : « كلا . . . وسأحرقها أيضاً بعد تمزيقها ؟ الشعر ! يا للسخافة ! . . . »

قال : « أعطنيها ولا تمزقها »

قلت : « كلا ... إنك شاب . وحرام علىّ أن أسىء إليك وأن أضلك . . . اخرج . . . اخرج . . . مع السلامة . . . »

إبراهيم عبد القادر المازنى

بيت الأبرة

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

هى آلة عجيبة ذات مبدإ ثابت لاتحيد عنه ، ولا تعرف غير الاتجاه نحوه ، فهى دائماً وأبداً تتجه نحو الشمال والجنوب . هذه الآلة العجيبة المغناطيسية تستعمل فى السفن البحرية لادارة سيرها ولها تاريخ عجيب أوقع العلماء فى حيرة وارتباك ، إذ لم يستطع أحد منهم البت فى نسبة اختراعها ، بل لم يستطع الوصول الى جواب شاف مرض عن السؤالين الآتيين : مَنْ اخترع هذه الآلة ؟ لمن الفضل فى إيجادها واستعمالها والاستفادة منها ؟ يدعى الصينيون أنهم أول من اخترعها ، ويدعى ذلك أيضاً العرب واليونان والاسكين والفنلنديين والطليان . تدعى كل هذه الشعوب السبق فى اختراعها وفى استعمالها ، وكل منها يقول إنه هو السابق فى الانتفاع من هذا الاختراع ، وكل منها يقول إن الآخرين كانوا عالة عليه فى استعمال بيت الأبرة وفى الاستفادة منها ، وكل منها يقول أيضاً إن الفضل فى تقدم صناعة البوصلات البحرية يرجع الى علمائه ومشاهير بحارته

بحث الباحثون فى أصل الأبرة واختراعها ، وأخذ البحث معهم وقتاً طويلاً وسبب لهم عناء عظيماً ، وبرغم كل ذلك لم يقفوا على الحقيقة ، ولم يتمكن عالم من معرفة تاريخ تطور صناعة البوصلات البحرية معرفة تؤدى الى نتائج جلية واضحة ، معرفة تزيل سحب الشك والغموض المحاط بها أصل اختراع الآلة المذكورة ، فهى حقاً آلة عجيبة ولها تاريخ أعجب ، واختلاف الأمم على ذلك مما يثير الدهشة والاستغراب

لقد اطلعنا على أكثر ما قيل فى هذا الصدد وعلى بعض ما كتبه العلماء فى المجلات ودوائر المعارف فى هذا الموضوع ، واستطعنا من كل ذلك تكوين فكرة عن أصل الأبرة وتاريخ اختراعها واستعمالها وكيفية الانتفاع منها فى الأسفار البحرية ، وسنعطى رأياً فى ذلك على ضوء معلومات وبحوث الذين سبقونا فى ولوج هذا الباب

وقبل الخوض فى البحث يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن المغناطيس وعن رأى الأقدمين فيه فهذا مما يسهل علينا الدخول فى موضوع المقال

عرف اليونان شيئاً عن المغناطيس ، وكلمة مغناطيس مأخوذة من لغتهم ، وقالوا بأن فيه خاصية الجذب قبل غيرهم ، قال ارسطو : « حجر المغناطيس . . . إنه حجر يجتذب الحديد ، وأجود أصنافه ماكان أسود مشوباً بالحمرة ومعدنه ساحل بحر الهند ، وهو قريب من بلادها . . . (١) » هذه الخاصية أثارت استغراب كثير من الأمم ، فكانت مثار دهشتهم . وقد كثرت الأقوال الغريبة فيه (فى المغناطيس) ، ومن هذه الأقوال أنه إذا أصاب المغناطيس رائحة الثوم أو البصل بطل تأثيره وذهبت خاصية الجذب ، وإذا غسل بالخل عاد التأثير ورجعت اليه الخاصية المذكورة . وقال بعض الأقدمين بأن له خواص علاجية وصحية منها: أنه إذا علق إنسان المغناطيس على إنسان آخر نفع الأخير من وجع المفاصل ، وإن لمسته المرأة التى تعسرت ولادتها وضعت فى الحال ، وأن الذى يعلقه فى عنقه فقد استفاد كثيرا ، إذ يكبر عقله وتقوى فيه ملكة الحافظة ، وأن له سلطاناً على أمراض الطحال ، واستعمله ابقراط علاجاً للعقم ، وقال بليناس بأنه نافع ومفيد فى أمراض العين ، وقال ابن سينا إن درهماً منه يضاد التسمم بالحديد الذى كان يظن أنه سام . وجاء فى بعض الكتب بأن المغناطيس كثيراً ما استعمله الأقدمون للجروح ، وقال علماء العرب إنه ينفع فى النقرس والحصا . ولقد علق الفرنجة على هذه الأقوال وفندوها ، ولا يتسع المجال لذكر شىء من ذلك لاسيا والبحث فيها يخرجنا عن موضوع مقالنا

وللمغناطيس عدا خاصية الجذب ، خاصية أخرى هى من الأهمية بمكان عظيم ، وهذه هى خاصية الاتجاه ، وقد عرفها الصينيون وكانوا أول من قال بذلك . قال ستوفتن Staunton إن الكلمة التى يستعملها الصينيون لتدل على بيت الأبرة هى Ting - nan - - Ching ومعناها الأبرة التى تتجه نحو الجنوب ، ويقول أيضاً : ويظهر أنهم استعملوا هذه الخاصية فى الأسفار البحرية ، وقد عملوا آلات لذلك ليس فيها شىء من الصنعة أو الاتقان . وقال ديفس Davies إن الطرق التى كان يستعملها البحارة الصينيون فى عمل الأبرة تدل على أنهم لم يستعينوا بغيرهم من بحارة الأمم ، إذ لو استعانوا

(١) القزوينى — كتاب عجائب المخلوقات — ص ٢٠٠

واطلعوا على آلات غيرهم لاستطاعوا أن يحسوا صنعها ولما عملوها بالشكل الذى وجدت فيه عندهم ، ويقول أيضاً : إن العرب بطريقة غير معروفة اقتبسوا آلة بيت الأبرة عن البحارة الصينيين وإنه عن طريق المسلمين دخل هذا الاختراع أوربا[1] . وجاء فى بعض الكتب أن البحارة الصينيين عرفوا خاصية الاتجاه فى المغناطيس قبل الميلاد بمئات من السنين ، وأنهم ذكروا ذلك فى قاموسهم الذى وضع بعد الميلاد بمائة سنة ، وقد استعملوه للارشاد الى الجهات الأربع فى سفر البحر حوالى سنة ٣٠٠ م

وأما عن تسمية هذه الآلة فيقول روبنسن إنه لم يكن فى لغات العرب والعجم والترك كلمة تعنى Compass وأنهم كانوا يستعملون لذلك كلمة بوصلة ، وهى كلمة مأخوذة عن اللغة الأيطالية ، ولكن بادجر لا يوافقه على هذا تماماً حيث يقول : « برغم كون البحارة العرب الموجودين حول البحر الأبيض المتوسط استعملوا كلمة بوصلة لتدل على كلمة Compass ، إلا أننا نجد أن كلمة (بيت الأبرة) هى الأكثر شيوعاً واستعمالاً فى الأقطار الموجودة حول البحار الشرقية[2] ، والاصطلاح (بيت الأبرة) مستعمل فى أكثر الكتب ، وهذا ما جعلنا نفضل استعماله على غيره فى هذا المقال . قلنا إن اليونان أول من عرف فى المغناطيس خاصية الجذب ، وأن الصينيين أول من عرف فيه خاصية الاتجاه ، ولقد أخذ العرب والمسلمون هاتين الخاصيتين واستعملوهما فى أسفارهم البحرية » . جاء فى كنز التجار : — « ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامى إذا أظلم عليهم الجو ليلاً ولم يروا من النجوم ما يهتدون به إلى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءاً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه إلى بطن السفينة . ثم يأخذون ابرة وينفذونها فى سمرة أو قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها فى الماء الذى فى الاناء فتطفو على وجهه ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملء الكف ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فتدور الابرة على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة فان الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال . رأيت هذا العمل منهم عياناً فى ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى اسكندرية فى سنة أربعين وستمائة . وقيل إن رؤساء مسافرى بحر الهند يتعوضون عن

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Compass
(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية : مادة Compass

الابرة والسمرة شكل سمكة من حديد رقيق مجوف مستعد عندهم بحيث أنه إذا ألقى فى ماء الأناء عام وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال . . . »[1]

وإذا اطلعت على كتاب سارطون القيم فى (مقدمته لتاريخ العلوم) تجد أنه يرجح كون اختراع بيت الأبرة هو من نتاج قرائح المسلمين إذ يقول : « إن البحارة المسلمين على الأرجح هم أول من استعمل خاصية الاتجاه فى المغناطيس فى عمل الابر فى الأسفار البحرية ، وكان ذلك فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد . . . »[2] وينفى سارطون القول بأن البحارة الصينيين استعملوا خواص المغناطيس وطبقوها فى آلات للأسفار البحرية وغيرها .[3] ولدى قراءة كتاب تاريخ العرب للعلامة سيديو نجد أنه ينفى كون البحارة الصينيين استعملوا الابرة المغناطيسية فى الأسفار البحرية ويدعم قوله هذا بما يلى : « . . . وكيف يظن أنهم (أى أهل الصين) استعملوا بيت الابرة مع أنهم لم يزالوا إلى سنة ١٨٥٠ م يعتقدون أن القطب الجنوبى من الكرة الأرضية سمير تتلقى . . »[4] وهو القائل أيضاً بأن العرب استعملوا بيت الابرة فى القرن الحادى عشر للميلاد فى الأسفار البحرية والبرية وفى ضبط المحاريب

يظهر مما مر أنه ما من أحد بحث فى هذه الآلة وتاريخ استعمالها واستطاع أن يصل إلى نتائج حازمة شافية تزيل شكاً اكتنف هذا الموضوع ، وغموضاً استولى عليه . وعلى كل حال يمكننا القول بأن العرب عرفوا شيئاً عن المغناطيس ، وأنهم عرفوا فيه خاصتى الجذب والاتجاه ، وأنهم على الأرجح أول من استعملها فى عمل الأبرة فى الأسفار البحرية وأن آلة (بيت الأبرة) واستعمالها فى الملاحة دخلا أوروبا عن طريق البحارة المسلمين

وبينما أنا أهيىء هذا المقال قرأت مصادفة فى أحد أعداد مجلة الهلال (مجلد ٣٠ ج ٧) مقالاً عنوانه (العرب والبحار) بقلم الأستاذ المحقق عبد الله مخلص ، وقد وجدت فيه شيئاً عن اختراع بيت الأبرة المغناطيسية فلم أشأ أن أمر على ذلك دون تعليق . جاء فى مقال (العرب والبحار) بأن ابن ماجد هو الذى

(١) مجلة المقتطف — مج ٢٣ ج ٧ ص ٤٢٥ — ٤٢٦
(٢) سارطون — مقدمة لتاريخ العلوم . . . ج ١ ص ٧٤١
(٣) » » » ج ٢ ص ٢٤
(٤) سيديو — تاريخ العرب — ص ٢٦٨

اختبرع (الأبرة المغناطيسية) أو أنه هو (مخترع الابرة المغناطيسية) وهذا النص هو الذى حفزنى إلى التعليق . ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الابرة إلى ابن ماجد (أحد نوابغ المسلمين فى الملاحة) خطأ وليس فيها شيء من الصحة . فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الأبرة المغناطيسية كان معروفاً فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد بينما ابن ماجد وُجد فى القرن التاسع للهجرة أو القرن الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنه هو مخترع الأبرة المغناطيسية غلط ، ولا يرتكز على منطق عدا كونه خلاف الواقع . وقد تكون هذه النسبة آتية عن مهارته فى تسيير السفن وعن براعته فى فن الملاحة ، وعن وقوفه على أصول الأبرة المغناطيسية ، وكيفية استعمالها وفهمه المبادىء المنطوى عليها عملها . وعلى ذكر ابن ماجد أقول : قليلون جداً الذين يعرفون أن ابن ماجد من نوابغ المسلمين فى الملاحة وأنه كان يلقب بأسد البحر الهائج ، وأنه « هو الربان العربى الذى سير الأسطول البرتغالى بقيادة فاسكودى غاما فى طوافه حول الأرض من مالندى وهى جزر فى المحيط الهندى على ساحل أفريقيا الشمالية إلى كلكتا فى الهند . . . » [1] ويقال إن أباه ومن قبله جده كانا من رجال الملاحة المشهود لهم بالمهارة والبراعة وقد وضعا نظريات جديدة ومفيدة فى علم البحر ، ثم جاء من بعدهما ولدهما ابن ماجد فألف كتباً قيمة فى علم الملاحة وقد بناها على المشاهدة والتجربة منها : كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، وكتاب علم الملاحة ويشتمل على تاريخ الملاحة وعلاقتها بالنجوم فى خليج العجم والبحر الهندى وشواطئ جزيرة العرب وسومطرة وسيلان وزنجبار وغيرها ، وكتاب حاوية الاختصار فى أصول البحار ، وله أيضاً أرجوزة فى علم الملاحة ، وله قصائد أخرى فى وصف شواطئ جزيرة العرب [2] . وكان ابن ماجد يلقب نفسه بشاعر القبلتين ويعرف بسليل الأسود . ولقد بقيت القواعد التى وضعها ابن ماجد معتمد البحارة المسلمين فى مالندى إلى أواسط القرن التاسع عشر للميلاد . وقال برتن الانكليزى أن بحارة عدن فى سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) كانوا قبل السفر يقرأون الفاتحة لروح الشيخ ماجد . ولا ريب أن المقصود بالشيخ ماجد هو ابن ماجد [3]

نابلس — قدرى حافظ طوقان

(١) مجلة الهلال : مج ٣٠ ج ٧ ص ٦٣٨

(٢) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٤٤

(٣) راجع مجلة الهلال مج ٣٠ ج ٧ ص ٦٣٨ — ٦٣٩

١٠ – محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تساءل سيبيس : فيم قولك إن الانسان لا ينبغى أن يستل حياته ، وأنه يجب على الفيلسوف أن يُعدّ نفسه ليلحق بالموتى ؟ [1]

فأجاب سقراط : إنكما ياسيبيس وسمياس ، تعرفان فيلولاوس [2] فهلا سمعتماه قط يتحدث عن هذا ؟

إنى ياسقراط لم أفهم قوله أبداً

ليست كلماتى كذلك إلا صدى ، ولكنى شديد الرغبة فى أن أروى ما سمعته ، فالحق أنى مادمت مرتحلاً إلى غير هذا المكان فيجب ألا يُشْغَلَ الفكرُ ويدور الحديث إلا حول هذا الرحيل الذى أوشك أن أقوم به ، وماذا عساى أن أفعل خيراً من هذا منذ الآن إلى أن تغرب الشمس ؟

إذن فحدثنى يا سقراط ، لماذا استقرّ الرأى على ألا يكون الانتحار حقاً مشروعاً ؟ لقد سمعت فيلولاوس يقيناً يؤكد ذلك عند ما كان يمكث بيننا فى طيبة ؛ وثمّ أناس آخرون يقولون مثل هذا القول ، ولو أن أحداً منهم لم يستطع قط أن يفهمنى ما يقول

فأجاب سقراط . ولكنك يجب أن تحاول الفهم ما استطعت ، ولا بد أن يأتى اليوم الذى تفهم فيه ، أحسبك تعجب لماذا تشذ هذه الحالة وحدها ، ومعظم الشرور قد تجيء بالخير عرضاً (لأنه أليس من الجائز أن يكون الموت كذلك أفضل من الحياة فى بعض الظروف ؟) وإذا كان خيراً للانسان أن يموت ، فما الذى يمنع أن يقدم لنفسه الخير بنفسه ؛ أَلزامٌ عليه أن ينتظر من غيره يد الاحسان ؟

فقال سيبيس ضاحكاً فى لغته الدُّورية القومية : أى وحق جوبتر !

(١) يلاحظ سيبيس تناقضاً بين تحريم الانتحار ، واعتبار الموت خيراً ؛ ولكن سقراط أجابه بأن الانسان : (١) سجين ولا يجوز له أن يفتح باب سجنه ويفر هارباً ؛ (٢) لأن الانسان ليس ملك نفسه ولكنه ملك للآلهة ؛ فليس له الحق فى أن يتصرف فيما ليس له عليه سلطان المالك

(٢) فيلسوف كان مقيما فى مدينة طيبة ؛ وكان سمياس وسيبيس هذان تلميذيه

فأجاب سـقراط – إنى أُسَلِّم بأن فى هذا تناقضاً ظاهراً ، ولـكن مع ذلك قد لا يكون هذا التناقض حقيقياً ، هناك مذهب جرت به الألسنة فى الخفاء بأن الانسان سجين ، وليس له الحق فى أن يفتح باب سجنه ليفر هارباً ، إن ذلك إشكال عظيم لست أفهمه فهما دقيقاً ، ولـكنى أعتقد مع ذلك أن الآلهة هم أولياؤنا وأننا مِـلْكٌ لهم ، أفلست ترى ذلك ؟

قال سيبيس – نعم ، إنى أوافق على ذلك

فلو أن ثوراً مثلاً مما تملك أنت أو حماراً ، شاءت له إرادته أن يحيد بنفسه عن الطريق ، على حين أنك لم تُشِرْ له برغبتك فى وجوب موته ، أفلا تسخط عليه ، ثم ألا تعاقبه إن استطعت ؟

فأجاب سيبيس – يقينا

وإذن فقـد يكون فى القول بأن الانسان يجب أن ينتظر ، وألا يُهلك حياته بنفسه ، حتى يقضى الله فيه أمراً ، كما فعل بى الآن ، سندٌ من العقل

قال سيبيس – نعم ياسقراط ، إن فى ذلك ولا ريب سنداً من العقل ، ولـكن كيف بعد هذا تستطيع أن توائم بين هذه العقيدة الصحيحة فى ظاهرها وهى أن الله مولانا ونحن له عبيد ، وبين ما كنا نضيفه إلى الفيلسوف من رغبة فى الموت ؟ أما أن يرغب من هم أبلغ الناس حكمةً ، فى ترك هذا العمل الذى تحكمهم فيه الآلهة ، وهم خير الحاكمين ، فلا يسلم به العقـل ، لأنه يستحيل على صاحب الحـكمة أن يظن بنفسه المقدرة ، لو أطلقت له حرية العمل على أن يعنى بنفسه أكثر مما تُعنى به الآلهة ، ربما توهم ذلك المأفون ، وقد يحتج بأن خيراً له أن يفر من سيده دون أن يضع فى اعتباره بأن واجبه هو أن يثبت حتى النهاية ، لا أن يفر من الخير فراراً لا حكمة فيـه . أما الرجل الحـكيم فلا اخاله إلا راغباً فى أن يكون أبداً مع من هو خير منه . أنظر ياسـقراط . فهذا يناقض ما قد قيل الساعة تواً ، إذ يترتب على هذا الأساس أن يأسف ذو الحـكمة لفراق الحياة ، وأن يغتبط له الجهول

فصادفت حماسة سيبيس فيما يظهر غبطة من سقراط ، فالتفت الينا وقال : ها كم رجلاً لا يبرح متسائلاً ، ولا تكفى لاقناعه الفترة القصيرة ، وليست كل حجة ترضيه

فأضاف سمياس – ولـكن اعتراضه الآن يبدو لى على شىء من القوة ، فأى غناء عسى أن يكون فى ذى الحـكمة الحق ، إذا هو ابتغى أن يلوذ بالفرار ، وأن يستخف بترك سيده الذى هو أفضل منه ؟ ولست إخال سيبيس إلا مشيراً اليك ، فهو يظن أنك لا تتردد فى تركنا ، بل لا تتردد فى ترك الآلهة الذين هم كما اعترفت أولى أمرنا الصالحون

فاجاب سقراط – نعم ذلك قول يستقيم مع العقل ، ولـكن أهو فى ظنك دعوى ينبغى أن أجيب عنها كما لو كنت أمام القضاء ؟

قال سمياس – ذلك ما كنا نبتغى

إذن فلأحاول أن ألقى فى نفوسكم أثراً خيراً بما تركت حين كنت أدافع عن نفسى أمام القضاة ، فلست أتردد يا سيبيس وسمياس فى الاعتراف بوجوب الأسى من الموت ، إذا لم أكن راسخ العقيدة بأنى ذاهب الى طائفـة أخرى من الآلهة ذوى الخير والحـكمة (وإنى لأوقن بهذا يقينى بأى شىء آخر من هذا القبيل) والى الراحلين من الرجال (وإن كنت لا أقطع بهذا قطعى بالأولى) وهم يَفْضُلون هؤلاء الذين أخلفهم ورائى ، فلست لهذا أبتئس ، كما كان يُنتظر أن أفعل ، لأنى آمل خيراً ، بأن ثمت شيئاً لا يزال مدخراً للموت ، وهو كما قد قيل منذ القدم أدنى جدا الى الخير منه الى الشر

قال سمياس – ولـكن هل تريد أن تستصحب أراءك معك ياسقراط فلا تنقلها الينا ؛ إنا قد نرجو أيضاً أن نساهم فى ذلك النفع ، وأنت إذا وفقت بعد ذلك لاقناعنا ، كان ذلك منك رداً على ما اتُّهمتَ به

فأجاب سقراط – سأبذل وسعى ، ولـكن دعونى أستمع أولاً لما يريده كريتون . إنه كان قد هم أن يقول لى شيئاً

فأجاب كريتون – أردت أن أقول ياسقراط إن الخادم الذى أمر باعطائك السم قد أنبأنى ، لأبلغك ، بأنه يحسن بك ألا تكثر الـكلام لأنه يزيد من الحرارة ، وهذه تؤثر فى فعل السم ؛ لقد اضطر أحياناً أولئك الذين أثاروا نفوسهم أن يجرعوا السم مرتين أو ثلاثاً

قال سقراط – إذن فليؤد واجبه ، وليتأهب لاعطاء السم مرتين أو ثلاثاً ، إذا لزم الأمر ، وحسبنا هذا

فأجاب كريتون – لقد كدت أوقن بأنك سـتقول ذلك ، ولـكنى لم أجد محيصاً عن ارضائه

قال سقراط – لا تأبه له

وهأنذا الآن أجيبكم — أنتم يا قضاتى — فأبين لكم أن من عاش فيلسوفاً حقاً ، معه الحجة فى أن ينعم بالاً إذا ما اقترب من الموت ، وأنه قد يرجو أن يصيب فى العالم الآخر بعد الموت أعظم الخير . سأشرح لكما أى سيبيس وسمياس ، كيف يمكن أن يكون هذا ، فيغلب فيما أرى أن يسيء الناس الظن بطالب الفلسفة الصحيح ، لأنهم لا يدركون أنه أبداً دائب السعى وراء الموت والموتى . وإن صح أنه ما برح راغباً فى الموت طوال حياته ، ففيم الجزع إذا ما تهيأت له غايته التى كان لا يفتأ ساعياً اليها راغباً فيها

فضحك سمياس وقال — إنى وإن كنت لا أسوق القول متندراً هازلاً ، لأقسم بأنه لا يسعني إلا أن أضحك إذا ما فكرت فيما سيقوله هذا العالم اللعين ، حين يخبَّر بهذا — سيقولون بأن هذا بالغ الحق — ومَنْ فى دورنا من أهل ، سيؤيدونهم ، فى قولهم بأن الحياة التى يتمناها الفلاسفة هى لاشيء غير الموت ، وإنهم قد تبينوهم فاذا هم حقيقون بالموت الذى يتمنون

وهم على حق يا سمياس فى قولهم هذا ، إذا استثنيت منه هذه العبارة : « إنهم تبينوهم » لأنهم لم يتبينوا طبيعة هذا الموت الذى يتمناه الفيلسوف الحق ، ولا كيف هو حقيق بالموت أو راغب فيه ، فلندعهم وليتحدث بعضنا الى بعض قليلاً : أنحن معتقدون فى وجود ما يسمى بالموت ؟

فأجاب سمياس — كن من ذلك على يقين

وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد ؟ والانسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا ما قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد ، وقام الجسد مفصولاً عن الروح — أليس ذلك هو الموت ؟

فأجاب — هو كذلك . وليس شيئاً غير هذا

وما قولك يا صديقى فى مسألة أخرى ، أحب أن تدلى الىّ رأيك فيها ، وقد تلقى اجابتك عنها ضوءاً على موضوع بحثنا ، هل ترى جديراً بالفيلسوف أن يعنى بلذائذ الأكل والشرب — إن صح أن تدعى هذه لذائذ ؟

فأجاب سمياس — لا ، ولا شك

وماذا تقول فى لذة الحب ، أينبغى له أن يُعنى بها ؟

لا ينبغى بحال من الأحوال

وهل يجوز له أن يطيل الفكر فى غير ذلك من ألوان لذة الجسد — كحيازة اللباس الفاخر ، والنعال ، مثلاً ، أو غيرها من زينات البدن ؟ ألا يجدر به بدلاً من أن يعنى بهذا أن يزدرى كل شيء مما يزيد على حاجة الطبيعة ؟ فماذا تقول ؟

يجب أن أقرر بأن الفيلسوف الحق ينبغى أن يزدريها

ألست ترى أن ينصرف بكليته الى الروح لا الى البدن ؟

إنه يود أن يتخلص من البدن وأن يعود الى الروح ما استطاع الى ذلك سبيلاً

ذلك حق

وترى الفلاسفة يلتمسون فى مثل هذا الأمر كل سبيل لفصل الروح عن الجسد أكثر مما يفعل سائر الناس جميعاً

ذلك صحيح

بينا يعتقد سائر الناس يا سمياس أن حياة تخلو من لذائذ البدن ولا تأخذ منها بقسط ، ليست حقيقة بالبقاء ، بل يرون أن إنساناً لا يفكر فى مسرات الجسد ، يكاد يكون كالأموات

ذلك جد صحيح

وبعد فماذا عسانا أن نقول عن السبل الحقيقية التى تقتضيها المعرفة ؟ إن كان ثمت ما يدعو الجسم للمساهمة فى تحصيلها ، فهل يكون عائقاً لها أم معيناً عليها ؟ أعنى هل يأتينا البصر والسمع بحقيقة ما ؟ أليس هما دليلين خاطئين كما لا يفتأ ينبئنا الشعراء ؟ فان كانا خاطئين ومبهمين ، فماذا عسى أن يقال عن سائر الحواس ؟ ولا أحسبكم معارضين فى أنهما أضبط الحواس

فأجاب سمياس — يقيناً

وإذن فمتى تدرك الروح الحقيقة ؟ — لأنها إن أشركت معها الجسم فيما تحاول أن تبحثه ، فهى مخدوعة لا محالة

— نعم ، هذا صحيح

— أفلا يجب إذن أن ينكشف لها الوجود بوساطة الفكر ، إن كان له أن ينكشف

— نعم

— وأحسن ما يكون الفكر حينما ينحصر فى حدود نفسه ، حتى لا يشغله شيء من هذه — فلا أصوات ولا مناظر ولا ألم ولا لذة مطلقاً — وذلك إنما يكون عندما يصبح الفكر أقل اتصالاً بالجسد ، فلا يصله منه حس ولا شعور ، بل ينصرف بتطلعه الى الكون

— هذا صحيح

« يتبع » زكى نجيب محمود

٨ ــ بين القاهرة وطوس

المشهد وطوس

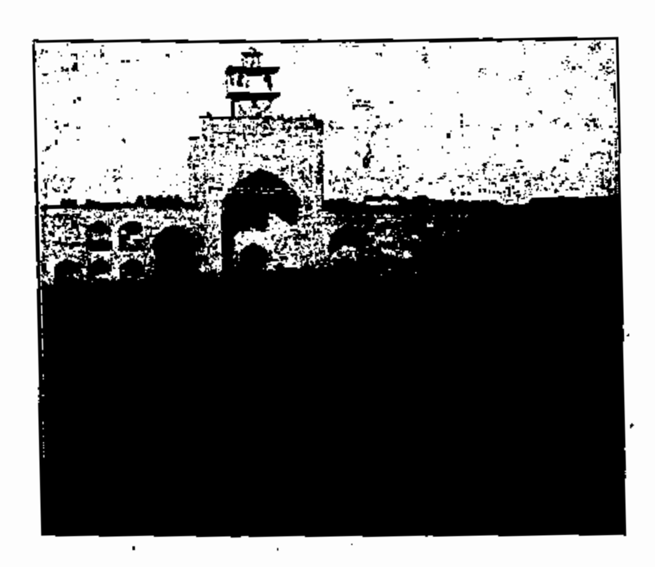
للدكتور عبد الوهاب عزام

يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عاليـة مغشاة بالذهب ومنارتين مذهبتين رفيعتين . فهذا أول ما يسرّ البصر من مسجد الامام على الرضا . فاذا ذهب إلى المسجد الذى يسمى الحرم الرضوى أو العتبة المقدسة (آستانة مقدس) رأى أبنية جميلة شاخة واسعة رائعة لا يستطيع الشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة

إذا دخل القادم المدينةَ من غربيها فسار فى الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام رائعات وراءها طريق مبلط ينتهى إلى مدخل الحرم الرضوى فيلجه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع تجرى فى وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم . وإنى أشفق على القارئ من تفصيل الكلام فى وصف هذا الحرم المعظم الذى توالت عليه الأيدى بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة . فحسبى أن أقول إن فى وسط الحرم قبة الامام الرضا وأروقة متصلة بها وتمتد الصحن القديم شمالى هذه الأبنية ، والصحن الجديد شرقيها ، ومسجد جوهر شاد جنوبيها . ويحار الطرف فى جمال القبة الشريفة وزينتها وفيما فى المسجد كله من الكاشانى والبلور والذهب الخالص ، والقبة تقوم على قبر الامام الرضا . وهو فى جانب منها ، ويُظن أن قبر هرون الرشيد فى وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً

أقدم ما فى هذه الأبنية يرجع إلى سنة ٥١٢ وهو بناء السلطان سنجر السلجوقى . وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه ، ومن هؤلاء السلطان أُلجايتو ، من الملوك الأيلخانية ، وشاه رخ بن تيمورلنك وزوجه جوهر شاد ، ومشير على نوائى وزير السلطان حسين بايقرا ، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير ؛ ومن القاجاريين فتح على شاه وناصر الدين شاه . كل هؤلاء بذلوا جهدهم فى أن يؤثروا فى المشهد الرضوى أثراً خالداً يكسف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذى يعجز القلم عن تصوره للقارئ

وقد وعدت فى المقال السابق أن أصف مسجد جوهر شاد هذه الأميرة التقية الخيّرة ؛ فهو مسجد يمتد جنوبى المشهد الرضوى من الشمال إلى الجنوب (٩٥ × ٨٤ متراً) وأعظم أواوينه الايوان الجنوبى ، وهو عقد هائل ارتفاعه ٢٥ متراً غشى كله بالكاشانى الجميل ، وعلى دائرته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها بخطه الأمير بايسنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك ، وذلك إلى آثار أخرى دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولاسيما الخط . وفى هذا الايوان كرسى من الخشب يقال إن المهدى سيجلس عليه أول ما يظهر للناس ؛ وفى وسط المسجد مصلى يسمى مسجد بيرزن (مسجد المرأة العجوز) وفيما يلى المشهدَ الرضوى بنيّة اسمها دار الحفاظ . وتصل المسجد بالمشهد الرضوى أبواب صغيرة



مسجد الامام على الرضا بمدينة المشهد

زرنا المسجد الرضوى صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصلٍّ ومسبِّح وداعٍ وباكٍ ومقبِّل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس ، ولهذا الحشر دوىٌّ يملأ القلب خشوعاً ورهبة ، وسار بنا الدليل إلى بناء فى ناحية من الحرم اسمه حجرة التشريفات ، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القوّام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا إلينا الشاى ، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغتباطهم ، ومتحدثين بالاخوة الاسلامية التى تجمعنا وإياهم ؛ ثم انصرفنا شاكرين آملين أن نعود إلى شرف الزيارة مرات حتى تقضى النفس لبانتها من مشاهدة هذا الجمال والجلال

ويوم الأحد التالى زرت المكتبة الرضوية وهى فى الصحن الجديد فى الطبقة الثانية ، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الانسان فى مرآها ويعجز عن وصفها ، وحدثنى قيِّم المكتبة

أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة : رأيت قطعة من مصحف بخط كوفي في آخرها : « كتبه علي بن أبي طالب » ، ومصحفاً كاملاً بخط كوفي في آخرها : « كتبه الحسن بن علي بن أبي طالب » ، ورأيت مصحفاً وقفه ابراهيم قطب شاه سنة ٩٧٠ فيه ٣٣٩ ورقة ، وفي كل صفحة ١٢ سطراً محلاة بالذهب والمينا ، وطول الصفحة ٥٦ قيراطاً وعرضها ٣٧ ، وفيه من بدائع الصناعة ما يجل عن الوصف ، فما زال الناظر فيه حائر القلب والطرف ؛ ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفر خان سنة ١١٤٨ فيه ٦٠٦ ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى . وفي هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا الرائي . وقد قيل لي إن بعض الأوربيين بذل في جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به . ورأيت ورقة واحدة من مصحف في طول قامة الرجل الطوال . وبها سبعة أسطر بخط الأمير بايسُنقر

وقد شهدنا في مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا وهو مستشفى كبير مجهز بأجهزة حديثة ، ومعرض صناعات خراسان ، ورأينا ألعاباً رياضية كالتي رأيناها في ميدان سلطنت آباد بطهران وقد وصفتها آنفاً . وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا اليها رئيس الوزراء ومتولي الحرم الرضوي ، ألقيت فيها خطب كثيرة . وزرنا مدفن نادر شاه ، وهو البطل الكبير الذي رفعته همته من رعي الغنم الى رعاية الأمم ، والذي أخرج الأفغانيين من إيران ، ودبر الأمور باسم الصفويين حيناً ، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه ، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لا تحصى من دهلي ، واضطر الدولة العثمانية الى مصالحته على ما أراد لدولته ، وتوفي سنة ١١٦٠ بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة — دخلنا حديقة واسعة في وسطها بناء مرتفع قليلاً يشتمل على حجرات عدة ، دخلنا واحدة منها فقيل هنا دفن نادر شاه وسيشاد له قبر هنا

طوس :

على خمسة وعشرين كيلاً الى الشمال من مشهد ، آثار المدينة الكبيرة التي كانت من أعظم مدن خراسان ، والتي نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء : مدينة طوس . وطوس اسم أقليم في خراسان كان فيه مدينتان كبيرتان : طابران ونوقان . فأما طابران فقد اتسعت ونبهت حتى سميت طوساً باسم الأقليم كله ، وبقي اسم طابران على إحدى محلاتها . وأما نوقان فكان على مقربة منها قرية سناباذ التي دفن فيها الرشيد العباسي والرضا العلوي فنمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت أبنيتها بنوقان ونسخت اسمها

وقد اشتبه أمر طوس ونوقان على بعض الجغرافيين فقالوا إن مدينة طوس مدينتان : طابران ونوقان . قال ياقوت عن طوس : « وهي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لاحداهما (طابران) ، وللأخرى (نوقان) » والحق أن لاقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التي سميت طوس ونوقان التي اندمجت في مشهد كما قدمت . وكان لطوس شأن في التاريخ الاسلامي ، وتقلبت بها الغير حتى خربها ميرانشاه ابن تيمورلنك سنة ٧٩١ هـ

وينسب إلى مدينة طوس الامام الغزالي ، ونصير الدين الطوسي وغيرهما من العلماء . وقد مات الغزالي بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها ، رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ ، ورثاه الأبيوردي فقال :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى ... من كل حيّ عظيم القدر أشرفُه
وما لمن يمترى في الله عَبرته ... على أبي حامد لاح يعنفُه
تلك الرزيّة تستهوي قُوى جلدي ... والطرف تسهره والدمع تنزفه
فماله خلّة في الزهد منكرة ... ولا له شبه في الخلق نعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الخلق يخلفه

وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي صاحب الشاهنامة المتوفى سنة ٤١١ . وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة . في سورها الشمالي الشرقي

وقد زار نظامي العروض قبر الفردوسي سنة ٥١٠ وقال : « وكان داخل الباب بستان للفردوسي ندُفن فيه وهو اليوم هناك » وقال دولتشاه السمرقندي سنة ٨٩٣ « وقبره في طوس بجانب مزار العباسية ، ومرقده الشريف معروف اليوم ، يزوره الناس » ويقول القاضي نور الله في أواخر القرن العاشر الهجري إنه زار قبر الفردوسي

وقد رآه بعض سياحي أوربا ، أوائل القرن التاسع عشر الميلادي . وقال خانيكوف سنة ١٨٥٨ إن البناء الصغير الذي كان يميز قبر الفردوسي قد اندثر

وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن مكان القبر

فشادت الدولة عليه بناء نجاري القاوي، صورته تحت هذا :



قبر الشاعر العظيم أبو القاسم الفردوسي

سرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب (١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ ــ ٢٠ مهرماه سنة ١٣١٣) فبلغناها بعد نصف ساعة فملنا إلى الشرق ، واجتزنا نهر كشف في جادة واسعة تفضي إلى حديقة الفردوسي ، فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع ، ووراءه بنية جميلة رائعة . وهي مصطبة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار ، كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامة . وزيد على الوجه الأول كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوي بالفردوسي ، وأمره بتشييد البنـاء في التاريخ المبيّن به

وللبناء باب صغير على جانبيه نقوش تمثل حوادث في الشاهنامة . ويفضي الباب إلى حجرة في وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نحت فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسي وتاريخ مولد الشاعر ووفاته ، وفي الجدار المقابل للباب كوّة . والبناء في جملته جميل رائع

جلسنا في سرادق ضرب هنالك ، فلما اقترب مقدم جلالة الشاه ، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء ، وقف الوفود وحدهم ، وأعيان الأيرانيين وحدهم . ثم أقبل جلالة الشاه ، فسلم على الوافدين واحداً واحداً ، يعرفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف . ثم ارتقى جلالة الشاه النصب ، ووقف يقرأ كلمة افتتاح تذكار الفردوسي . ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرأى قبر الشاعر، ثم دُعي الوفود فدخلوا . ثم وقف جلالة الشاه في ناحية من الحديقة يتحدث مع وزرائه ، ثم ركب سيارته . وبقينا زمناً نمتع العين بما نرى ، ونأخذ بأطراف الحديث

ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسي بناء له قبة وقد تهدمت أعاليه ، فقال من كان معنا من أهل مشهد إنه قصر بناه الرشيد ، وقال بعض المستشرقين إنه قبر الغزالي . وإنه بني على نسق مرقد السلطان سنجر في مرو ؛ وعلى نسقه بني مرقد السلطان الجايتو في السلطانية . وإنما العلم عند الله



الأستاذ مينورسكي أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن والدكتور عبد الوهاب عزام في حضرة جلالة الشاه

رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الأثنين . ثم أخذنا طريقنا عودا إلى طهران

عبد الوهاب عزام

أحمد المتنبي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

١

أحمدٌ كان مثل بحرٍ رحيب   موْجُه فوق لُجّه كالـكثيبِ
شغل الناسَ منذ كان بشِعْرٍ   قاله معجزاً لـكل أديب
إنْ يكن أحمدُ تنبَّأ في القو   م فما إن عليه من تثريب
فلقد كان الشعر يوحَى إليــه   سُوَراً للاصلاح والتهذيب
إنمـا معجزاته في معانيـ   ـه وفي لفظه وفي الأسـلوب
كم له من معنى تراه قريباً   وهو في نفس الأمر غير قريب
ومن اللفظ ما يكاد من الرقّـ   ـة يجري إلى صميم القـلوبِ

٢

أحمدٌ كان شاعراً وحكيما   وبأسرار النفس كان عليما
أحمدٌ لا يفنى وإن كان في قبـ   ـرٍ عفتْـهُ الأيام عظماً رميما
أحمدٌ كان في الزعامة للشعـ   ـر وفي العـلم بالحياة عظيما
قد أراد الحُسَّاد للحُرّ هضما   فأبى الحرُّ أن يكون هضيما
جعل الشعر كالنهار مضيئاً   بعد أن كان الشعرُ ليلاً بهيما
وكأن الديوان في جمعه ما   قاله كان للنجوم سديما
قتلوا الشاعرَ العظيم اغتيالا   وفشـا قتلُه فكان أليماً

٣

أيها الشاعر الحَفِيّ القدير   باسمك اليوم يهتف الجمهور
أكبر الفضل ماتقدّره الأجيا   لُ من بعد أهـــله والدهور
إنمـا قد أصاب ثاكلةَ الأمـ   ـة لمّا أصابك المقـــدور
ذُمَّ دنيا غرّارة ليس تخلو   من رزايا يسوء فيها المصير
أفجعُ الحادثات في الغرب والشر   ق على النابه الأديب تدور
قائل الشعر قد يبور مصاباً   بمُلِمٍّ وشـــعرُه لا يبور
حبـذا الشعر آتياً من شعور   إنمـا يلمس الشعورَ الشعور

٤

يا قتيـل الآداب إنك باق   وستحيا في أنفس العشّاق
كل بيتٍ قد قلتهُ فيك أرثي   آهةٌ لي جاءت من الأعماق
حرَمَ القاتلوك أمتهم من   كلمٍ ملء الدهر والآفاق
ولقد صارعتَ الخطوبَ إلى أن   أطفأت منك كوكباً ذا ائتلاق
شاعر العقل، شاعر المجد والفخـ   ـر الأثيلين، شاعر الأخـلاق
والذي آمنت ببعثتـه النا   سُ على خِلفـةٍ من الأذواق
جاءت الخيل وهي تنحط إعيا[1]   ءً وراء المحجَّل السّباق

٥

إنمـا أنت للقريب الجـديد   مثلمـا أنت للقـديم البعيد
لستُ ممن يَقْلُون كل قديم   غـير أني أحبُّ كل جديد
أنت في الدولتين كنتَ رسولا   ذا كتاب تدعو إلى التوحيد
ولقد صاغوا الشعرَ قبلك من لفـ   ـظ ووزنٍ وصُغتَه من جديد
واحـدٌ أنت من عباقرةٍ ما   توا على الأرض غيلةً للخلود
أنت ممن جنى القريض عليهم   قُتِلَ الشعرُ كم له من شهيد!
كنتَ حيناً كالليث يزأر للبطـ   ـش وحيناً كالبلبل الغِرّيد

٦

أنت بالشعر إذ هززتَ الشعوبا   كنت تُرضيُ النُهى وتُرضي القلوبا
حِكَمٌ للذي أراد صوابا   ونسيبٌ لمن أراد النسيبا
تلك نارٌ إذا خَبَتْ فهي تُبقي   من جـديد للمصطلين لهيبا
يتعب الدهر في التخير حتى   يهب الناسَ شاعراً أو أديبا
قد دعاك العُلا فسرتَ إليه   ودعوتَ العُلا فكان مجيبا
إنه وحـده الحبيب الذي قد   كنتَ منه وكان منك قريبا
ولئن كنتَ للغبيّ بغيضا   فلقد كنتَ للذكيّ حبيبا

٧

أنت فردٌ يا أحمدُ المتنبي   في قريض نظمتَه، إي وربّي!
ما دعوتَ القوافيَ الغُرّ إلّا   وهيَ عند الدعاء جاءت تلبّي
كثر الناقدو قريضك بالبا   طل ستراً لصدقه بالكذِب
رُبّ بنتٍ للشعر قد وأدوها   في ربيع الصبا على غير ذنب
غير أن الأيام قد ضربتهـم   بعد حرب تأجّجت أيّ ضرب
شاعرٌ أنت للمروءة جمعا   ء برغم الحُسّاد في كل حقب
ولقد قالوا ما لأحمـــدَ قبرٌ   كذبوا، إن قبر أحمد قلبي

---

(١) من أعيا إذا تعب

٨

لك فى الشعر عزّة قعساء ... عجزت عن بلوغها الشعراء
إنهم ضلوا فى ظلام الليالى ... وهدتك المجرّة البيضاء
إنما قالة القريض كثير ... وقليل من بينها النبغاء
بين من راضوا الشعر أو قرضوه ... ليس إلا لاسم الزعيم البقاء
القريض الشريف ممن أهانو ... ه بما أسندوا إليه براء
ليس من حظ العبقرىّ إذا برْ ... رَزَ إلا العداء والبغضاء
ليس بالشعر ما خلا من شعور ... وإن احلولى لفظه والبناء

٩

فاق شعر به نطقت مبينا ... غُرَرَ الأولين والآخرينا
كان يحكى اليراعُ منك حساماً ... كلما احتلّ من يديك اليمينا
كنت تسطو به فيبدى زئيراً ... ثم تشكو به فيبدى أنينا
ضحكوا غِرّةً فأسبلتَ دمعا ... كنتَ تبكى به على الضاحكينا
ضمّ ديوانك الذى هو فِردَو ... سٌ من الشعر البِكر حُوراً عِينا
إننى كلما له جئت أتلو ... أقرأ الحسنَ والهدى واليقينا
ولقد أبصُر الكماةَ أمامى ... وأرى قسطلاً فأغضى العيونا

١٠

كان ليلٌ يدجو وكان صباحُ ... تتغذّى بضوئه الأرواح
أنت فى بحرٍ كنتَ تسبح والبا ... قون فى حوضٍ ماؤه ضحضاح
بك ليلُ القريض بعد ظلام ... لاح للعين صبحُه الوضّاح
ثم زاد المقصّرون صناعا ... تٍ إليها الأديب لا يرتاح
ثم كان الغواة فيه فريقيـ ... ـن لكلٍّ عتادُه والسلاح
ففريقٌ مقلِّدٌ لسواه ... وفريقٌ أباح مالا يُباح
ثم شبّت بين الفريقين حربٌ ... كثرت فى الغِمار منها الجراح

١١

واحدٌ أنت من ملوك المعانى ... ماله فى سلطانه من ثان
شاعر العقل والعواطف فى النفـ ... ـس وما فى قرارها من أمانى
لا يدانيك ناقدٌ قد تحدّى، ... إنه هادمٌ وأنت البانى
مالهم فى البلاغة اليوم أرضٌ ... ولك المشرقان والمغربان
أنت ما كنت ترسل الشعرَ إلاّ ... بعد نضج فى العقل أوفى الجَنان
بعد ألف من السنين تقضّى ... أكبرتك الأقوامُ فى مهرجان
تعترى السامعى قريضك منهم ... هزّةٌ فى الأرواح والأبدان

فانك مصرى . . .

للأستاذ فخرى أبو السعود

لمناسبة ما أبداه بعض الافرنج من أمارات الاستهجان
أثناء عرض مناظر المؤتمر الوطنى بدور السينما

أقِمْ صاغراً أو أرغمْ حياتك واشْقَها ... فإنك مصرىٌّ وإنك مسلمُ !
وإنك شرقىٌّ ونسلُ أعارب ... بدينُك غربىٌّ ويعلوك أعجمُ
وإنك بين البيض أسمرُ كالحٌ ... وحظُّك فى الدنيا كجلدك أسحمُ
وإنك ذيلُ العصر والغيرُ رأسُه ... تقاعستَ عنه محجما حيث يُقدِمُ
ولستَ بفعّالٍ ولست بصانع ... وغيرُك مشهودُ الصناعة مُحكَم
يجىء بآيات الحضارة مُبدِعاً ... وتعجبُ مما بات يأتى وتسهمُ
وأنتَ إذا قال المُفاخرُ عاجزٌ ... وإن نطقت بيضُ الصوارم مُفحَم
ورأيُك منبوذٌ وقولُك ضائعٌ ... وسيّان منه صارخٌ ومُكتَّمُ
وأرضُك مَلهًى للدخيل وملعبٌ ... وجِدُّك مَلهاةٌ لمن يتهكّمُ
وحقُّك مبذولٌ وسعيك طائشٌ ... وإرثُك بين الطامعين مُقسَّمُ
وأنتَ أجيرٌ فى بلادك خادم ... وغيرُك يُستجدَى رضاه ويُخدَم
تَوَلَّى بأصفَى درِّها ونتاجها ... ويُرضيك ما يَبقَى ويكفيك درهم
ولا تعتِبنْ يوماً عليه إذا انبرى ... يسبُّك مُعتاتاً عليك ويشتم
فمثلُكَ مَنْ دارَى إذا احتدَّ غاضبٌ ... ومثلُكَ مَنْ يُغضى ويعفو ويحلُمُ

١٢

إنما جاءت الوفودُ ترامَى ... لتحييك رُكّعاً وقياما
إنهم يُكبِرون منك زعيما ... أقعد الناسَ شعرُه وأقاما
إنهم لبّوا دعوةَ الشعب لما ... قدموا أفواجاً فكانوا كِراما
لك يا أحمدُ الامامةُ فى المو ... ت كما كنتَ فى الحياة إماما
حبذا أبياتٌ بها كنتَ تشدو ... فجرت أمثالاً تزين الكلاما
سكت البلبلُ الذى كان يشدو ... كلَّ صبحٍ فيوقظ النُّوّاما
محسنٌ للتجديد أحمدُ فى البد ... ء فمن ذا سيحسن الاتماما؟

(بغداد) **جميل صدقى الزهاوى**

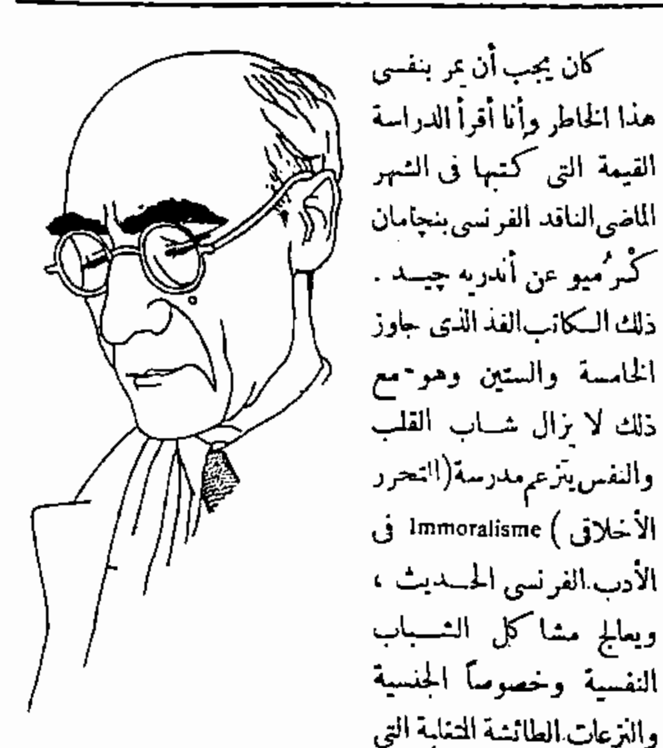
من الأدب الفرنسي المعاصر

أندريه جيــــد

André Gide

بقـــلم علي كامل

كثيراً ما تقع أعيننا على صورة نقشها يراع رسام بارع ليعبر بها عن فكرة من الأفكار فاذا هذه الصورة توافق هوى فى نفوسنا لأول نظرة بحيث نرى فيها خير ما يمكن التعبير به عن هذه الفكرة . كذلك قد نقرأ جملة قصيرة خطها قصصى أو ناقد يصف بها شخصاً من الأشخاص فاذا هـذا الوصف بالنسبة لنا كأنه كان ضالة منشودة وصلنا اليها بعد طول عناء . . . كأن كلا منا كانت تتردد أمام عينيه هذه الشخصية يريد وصفها وتحديدها ولـكن عبثاً ، حتى جاءت الجملة التى قرأها فنزلت على قلبه وأعصابه الملتهفة القلقة برداً وسلاماً !



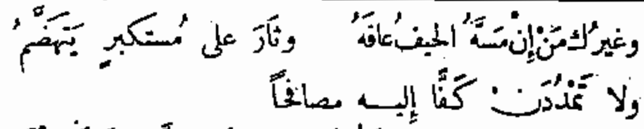
أندريه جيــد

كان يجب أن يمر بنفسي هذا الخاطر وأنا أقرأ الدراسة القيمة التى كتبها فى الشهر الماضى الناقد الفرنسى بنجامان كرُميو عن أندريه جيــد . ذلك الـكاتب الفذ الذى جاوز الخامسة والستين وهو مع ذلك لا يزال شاب القلب والنفس يتزعم مدرسة (التحرر الأخلاق Immoralisme) فى الأدب الفرنسي الحـديث ، ويعالج مشاكل الشباب النفسية وخصوصاً الجنسية والنزعات الطائشة المتقلبة التى تلازم الـكثير منهم بصراحة جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ من ذلك الـكاتب الشيخ . واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه

لم أكد أقرأ قول بنجامان كرميو : (إن اول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق ، معقد ، يتركب من عدة شخصيات . ولـكنه يمت إلى نوع نادر من البشر) ثم قوله . (وعندئذ لا نلبث أن نعرف أن فنه صورة منه) . لم أكد أقرأ ذلك حتى مرت أمام عينى كشريط سينمائى كل الصور التى رأيتها لأندريه جيد . وتذكرت عددا من مجلة (Vu) كان قد نشر — لمناسبة لا أذكرها الآن — بضع صور له فى فترات حياته المختلفة: فى الشباب والرجولة والـكهولة . وتذكرت معه هاتين العينين الحائرتين ، والوقفــة المضطربة ، والشارب المحلوق النـادر بين الفرنسيين . الذى ينزل به من سن الستين الى الثلاثين . فعرفت عندئذ مقدار ما فى قول بنجامان كرميو من الصدق ودقة الملاحظة

* * *

نعم إن فن أندريه جيد وفلســفته هما قبل كل شيء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته . فقد نشأ جيد فى أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتى وأم كاثوليـكية . وكان أثر بروتستانتية والده أعمق من أثر كاثوليكية والدته . وربى جيد تربية دينية خالصة ، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعة جيد أولا ومع الظروف التى صادفت شبابه ثانياً سبباً قاسياً فى أن تجعل من حياته مأساة



وغيرُك مَنْ إنْ مَسَّهُ الحيفُ عافَهُ وثارَ على مُستكبرٍ يتهضَّمُ
ولا تمُدَّنْ كفًّا إليـــه مصافحاً
فترفضَ وأصْمُتْ إنَّ صَمْتَكَ مَغْنَمُ
بذا قضت الأقدار: شَعبٌ مُكاثِرٌ عزيزٌ، وشعبٌ يُستذَلُّ ويُظْلَمُ
ولا تذْكُرَنْ مجداً لمصرَ وأعْصُراً تَسامَى بها المُلْكُ الرفيعُ المعظَّمُ
ولا تذكُرَنْ عهداً به السُّمْرُ وطَّدُوا بناء لهم فى العالمين ودعَّموا
وعهداً إذا رَجَّى به الناسُ مُنْتَمَى إلى العزِّ قال العزُّ للعَرَبِ انْتَمُوا !
وعهداً به أمْسَى الزمانُ مسبِّحاً بحمد الالَى لله صَلَّوْا وسَلَّموا
ولا ترْثِيَنْ تلك العهودَ ولا تَنُحْ عليها فما يُدْنِي المشيَّعَ مأْتَمُ
وتلك عهودٌ قد توَلَّتْ وقد تَلَتْ
شعوبٌ، ومَنْ لم يحكُموا الناسَ يُحكَموا
فعِشْ راغماً أو فاسْمُ للعز ضارباً بعزمٍ إذا ما أحْجَمَ الجنُّ يقْحَمُ
وحزمٍ يُصِمُّ السمْعَ عن نجْوِ كاشحٍ
وجدٍّ يُحِبُّ الصمْتَ لا يتكلَّمُ

فخرى أبو السعود

انسانية كبرى ، وأن تحمل شخصيته فريسة لحرب شعواء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته ، وجيد المتحرر تحرراً كلياً من سيطرة الدين بعقله وإرادته

عنـد ما بلغ جيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى تحت زعامة فرلين ورامبو وملارمى . وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيـل الثانى الذى من أعضائه فرنسيس چيمز وبول كلوديل ، وبول فور . فانضم إليهم أندريه جيد إذ وجد فى الشعر الرمزى الحالم السابح فى أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها ، سبيلاً إلى الانطلاق من عالمه الدينى الضيق المخنوق . ولم يكن تأثر جيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فنهم فحسب ، بل وجد فى حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلاً أعلى لحياة الفنان الحر الطليق الذى يريد أن يصل إلى فهم الحياة الحق مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاقى؛ على أن رمزية أندريه جيد لم تبلغ فى تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول . فهو أقل حدة فى العاطفة وجوحاً فى الخيال . وهو أمَرّ سخرية وأعمق تفكيراً وأشد رغبة فى ادراك حقيقة نفسه ، وأعظم انطلاقا وتعلقاً بالحياة المرحة . وفى أول كتبه Les Cahiers d' André Walter (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) تراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طلقة مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة)

وفى ذلك الوقت أيضاً ـ وقت شباب جيد ـ غزت فرنسا أفكارُ الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والكاتب الأيرلندى (أوسكار وايلد) فتأثر بهما اندريه جيد تأثراً عظيما . أخذ عن الأول فكرته عن (السبرمان) ، وعن الثانى فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان فى أن يحيا على هامش العادات الأخلاقيـــة المرعية ، والاثنان ـ جيـد ووايلد ـ يتفقان فى إعانهما بفكرة الجمال عند الأثينيين القدماء

كذلك تأثر جيد بفكرة الكاتب الفرنسى موريس باريس Barrés عن (عبادة النفس) Le culte du moi وأخذ عنه سخريته العالية

وأخيراً يجىء دور الكاتب الروسى دستوفسكى فكما أن نيتشه واوسكار وايلد كانا أعظم من أثر فى جيد الشاب ، كان دستوفسكى أعظم من أثر فى جيد الرجل

من ذلك نرى أن جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ، أليس هو القائل : (إن كل ما هو متطرف يؤثر فى ؟) لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ، وبأوسكار وايلد الايرلندى ، ونيتشه الألمانى ، ودستوفسكى الروسى . لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة . على أن جيد على رغم كلاسيكيته بعيد كل البعد عن العبودية لمن تأثر بهم . فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر ، وإن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ فى التحرر تجعلانه يجرى وراء الثقافة الواسـعة التى لاتعرف التمييز بين كاتب وآخر (فأنا ـ كما يقول ـ أنتظر دائماً شيئاً أجهله : أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفكاراً جديدة) ولقد بلغت به رغبته الحادة فى المعرفة الشـــاملة الى دراسة اللغات الأجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية

* * *

كانت أعمال جيـــد [1] الأولى (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) و Traité du Narcisse (١٨٩٣) و Le Voyage d' Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التى أراد بها التحرر مرة واحـدة من حياته الطاهرة المتقشفة . ففى أول أعماله يقول (الحياة الطلقة ، تلك هى أسمى حياة ، سوف لا أستبدل بها غيرها مطلقاً . لقد ذقت من هذه الحياة الطلقة ضروباً كثيرة . على أن الحياة الحقيقية كانت أقصرها)

وفى هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلمح القارىء بين سطورها ميولاً جامحة خفية يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها

على أن هذه الحرية التى يبيحها جيد لنفسه دون قيد لاتلبث أن يطغى عليها أحياناً إحساسه الدينى فيقول فى نفس الكتاب : (إننى أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من عمرى ، وهى

(١) ولد أندريه جيد فى باريس فى ٢١ نوفبر سنة ١٨٦٩ وتعلم فى
مدرسة الالزاس Ecole alsacienne ومدرسة هنرى الرابع Lycée Henri IV
وأهم أعماله الأدبية : Les Cahiers d' André Walter (١٨٩١) —
(١٨٩٣) Le Voyage d' Urien — (١٨٩٢)Traiié du Narcisse
— (١٨٩٧) Les Nourritures Terrestres (١٨٩٥) Paludes
—(١٩٠٣) Prétextes — (١٩٠٢) Saül — L' Immoraliste
Nouveaux Prétextes (١٩١١) Le Retour de l' enfant
isabelle — (١٩٠٩) La Porte étroite (١٩٠٧) prodigue
La Symphonie — (١٩١٤) Les Caves du Vatican (١٩١١)
— (١٩٢١) Si le grin ne meurt — (١٩١٩) pastorale
Souvenirs de la cour d' assises — (١٩٢٣) Dostoievsky
Voyage — Œdipe (١٩٢٥) Les faux monnayeurs — (١٩٢٤)
Essais — Robert — (١٩٢٧) Retour du Tchad — au Congo
(١٩٢٩) L' Ecole des femmes — sur Montaigne

السن التي تنطلق فيها من عقالها الشهوات ، أن أقمها بالعمل المضني اللذيذ . إنني أود في الوقت الذي يجري فيـه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التي تلازم حياة الصومعة)

وفي Les Nourritures terrestres (١٨٩٧) نرى جيـــد يبلغ انطلاقه الـكلي من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتي عن طريق الفـكر بل عن طريق الحس . من ذلك قوله : (إنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذي كان لزاماً علينا بذله لـكي نحس إحساساً صادقاً بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شيء آخر عن طريق الحس والشهوة) وكقوله أيضاً (لقد تـكعت هنا وهناك كي أستطيع أن ألمس كل من يتـكلم - إن قلبي يفيض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف أين يجد مكان دفئه . وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصعلك)

ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار في هذا الـكتاب أيضاً من إحـساسه الديني حين يقول :

كنت أقرأ (عقيدة العلم) لفيخت[١] فشعرت بأنني سأعود متديناً من جديد

وفي قصة L' Immoraliste (١٩٠٢) نرى عبقرية جيد ، وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه ، قد تعاونا على إظهار فـكرة (التحرر الأخلاقي) حيث نرى بطل القصة (ميشيل) - وهو رجل مريض - يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الأوضاع الأخلاقية

وفي La Porte étroite (١٩٠٩) و L'Isabelle (١٩١١) و La Symphonie pastorale (١٩١٩) نرى جيد - وخصوصاً في القصة الأولى - يعالج شخصيات تخالف تماماً في تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار والنزعات في الأعمال الأولى ، لأن الأولى استسلام مطلق لنداء الحياة ، والثانية استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية . فبينما نرى (ميشيل) في قصة L' Immoraliste ذلك الثائر على نظام الأسرة ، الهاجر لماله وزوجته ، المتمرد على الراحة والاستقرار ، الراغب في الرحيل إلى أبعد مكان ، الواجد في الحرية الجسدية والانطلاق الحسي شفاءه العاجل . نرى أيضاً (أليسا) Alissa في قصة La Porte étroite تلك الفتـاة الوادعة المتقشفة التي تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من ابن عمها (جيروم) الذي تحبه لـكي تقصر نفسها على الاستسلام لأحساساتها الدينية ، وتقترب من الله الذي تسميه (الأحسن) Le meilleur

ولا شك أن القصصي العبقري هو الذي يرسم لنا بين حين وآخر صوراً إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية راسمها الذي تسمو عبقريته كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتي . وهذا هو ما نراه في قصتي Eugenie Séraphitus Séraphita, ، Grendet للقصصي المظيم بلزاك ، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفســية الشخصيات من قصتي جيــد L' immoraliste و La Porte étroite ؛ على أن الفرق بين بلزاك وجيد - من هـذه الناحية - أن بلزاك في قصتيه رسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه . أما جيد فـكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفـكاره . ففي قصتيه السابقتين نراه يختفي وراء شخصيتي (ميشيل) و (أليسا) ، فشخصية (أليسا) هي صدى حياة جيد الطفل الذي نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلاً الى التخلص منه ؛ وشخصية (ميشيل) هي شخصية جيد الشاب المفـكر الذي نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة فلم يجد وسـيلة الى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر في أحضان الزهد والحرمان إلا بانـكار كل قاعدة أخلاقية واسـتغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة

وقد يلام أندريه جيد ويتهم فنه القصصي بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صوراً إنسانية خارجة عن نفسه شأن القصصيين العباقرة . والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصي نصيب عظيم ، وإنما عبقريته الحق هي في تلك الدعوة الحارة إلى (سيادة الحياة) وفي ذلك البحث المتواصل في سبيل فهم نفسه والنفس الانـسانية . وفي ذلك الاحتمال الباسل لهذا الـكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره بين العاطفة الدينية وبين الأباحية الأخلاقيـة . ثم أخيراً في محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى . ذلك كله هو الذي يعطي فن أندريه جيد لوناً تجديدياً وضاء ، ويعطي كتبه ذيوعاً قل أن نصادفه في كتب أعاظم الـكتاب المعاصرين . أليس هذا الفن - كما يقول الناقد أندريه بير - هو خير تعبـير عن اضطراب العصر الذي نعيش فيـه ؟ إن في كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالاً لا مثيـل له لراحتها النفسية ، فهو يكتب كما يقول (حتى يجد كل مراهق يصبح فيما بعد مماثلا لي وأنا في السادسة عشرة من عمري - ولـكنه يكون أكثر مني حرية وشجاعة وأعظم كمالا - جواباً لسؤاله المرتجف) فما هو هذا الجواب ؟ ذلك ما سوف نراه

البقية في العدد القادم

علي كامل

(١) فيخت فيلسوف ألماني متأثر بفلسفة (كانت)



ضحيـــة الوهم

بقلم القصصي الايطالي المعروف

ماسيمو بونتمبلي

Massimo Bontempelli

عهد إليّ « رينيه كلامار » أن أقتل الوقت مع « ميني » ، لأنه يريد أن يقضي أمراً يقصيه عنها نحو نصف الساعة. فأخذنا نسير في طريق اللوفر. وعلى حين غرة تركتني ميني مسرعة إلى الناحية الأخرى من الشارع لترى صندوقاً زجاجياً مستطيل الشكل وضع أمام حانوت لبيع أدوات صيد السمك. وكانت الأسماك الذهبية تسبح في الماء الصافي الذي امتلأ به الاناء. وكأنها من شدة فرحها لا تعرف بحراً خضما أعظم من هـذا الصندوق الزجاجي

وقالت ميني بعد أن صفقت بيديها :

« يا الـهي ، ما أجملها ! »

ودنوت أنا منها. ووافقتها على ذلك ، وفي صوتي نبرات الجد ، قائلاً :

« نعم ، إنها جديرة بأن تحوز اعجاب الناس . »

فنظرت إليّ ميني نظرة ناقد وقالت :

« ماهذا التعبير : جديرة بأن تحوز اعجاب الناس ؟ انه لا يقال إلا لما يصنعه الانسان بيده سواء أكان هـذا صوراً أم شعراً كالذي يتكلم عنه أصدقاؤك . وكذلك يمكن أن يقال هـذا عن الثياب . . . . »

ولكني قاطعتها بقوة من يريد الفصل في الموضوع : « لابد لي أن ألفت نظرك إلى أن رينيه كلامار وأنا وغيرنا — وهنا أخذت تنظر إلى كمن يتفرس في معرفة الأشياء — ذكروا أكثر من مرة أنك جديرة بأن تحوزي اعجاب الناس ؛ ومع ذلك فأنت لست من صنع إنسان »

وابتسمت ميني شاكرة ، ولكنها أجابت في منطق معكوس :

« ولكني على أي حال لست سمكة »

فتشبثت برأيي وقلت :

« على أني قلت إن هـذه السمكات جديرة بأن تحوز إعجاب الناس ، لأنها سمكات غير حقيقية ، هي سمكات تقليدية . »

فحدقت ميني فيّ أولاً ، ثم في السمك ثانياً ، ثم عادت تحدق فيّ ، ثم صفقت بيديها وقالت :

« أصحيح هذا ؟ »

وكانت ميني من أولئك الذين يعيشون وينمون ولا يتعدون دور الطفولة . ومثل هؤلاء يسهل إغراؤهم وقيادتهم ، وليس عندهم من الأشياء ما لا يمكن تصديقه والايمان به إذا ما قيل لهم ذلك . قالت ميني :

ـ ولكن كيف تتحرك هذه الأسماك ؟

فقلت لها : « إن الكهرباء مسلطة عليها . »

فالتفتت مسرعة إلى الأسماك وانحنت على الصندوق تدقق النظر إليـه . وكانت يداها المرتجفتان مثبتتين على موضع قلبها . وقالت

ولكن كيف تيسر لها كل ذلك ؟ إنها تفتح فاها . والصغيرة هذه تتحاشى الكبيرة في سيرها نحو سطح الماء . وهناك في الركن الآخر اثنان يتقارضان القبل ، كأنهما شقيقان . . . أي . أي . . . وفي القاع السمكة الكبيرة وقد اهتزت المياه من فوقها كفرس البحر الذي رأيناه في حديقة الحيوان ، وكان رينيه معنا »

ـ « نعم إنه لشيء عجاب . . . ولكن أناشدك الله ألا تمسي هذه المياه فان الكهرباء سارية فيها . »

فاسترجعت ميني أصبعها من فوق سطح الماء وقالت :

« وهذه السمكة وجارتها ألم ينظرا إلى الآن بنظرات حادة ؟ ».

وأبصرت صديقى وقلت :

« هاهو ذا رينيه . »

فقالت هى :

« أى رينيه ، يجب أن تنظر إلى هذه الأسماك ! »

وقلت مخاطباً رينيه :

إن مينى تعتقد أن هذه الأسماك حقيقية . »

وكان رينيه يعرف طبى جيداً ، ومعرفته بمينى تكاد تكون نوعاً من اختصاصه . فاندفع يشاطرنى هذرى

* * *

ولم تجد مينى طيلة ذلك اليوم شيئاً آخر تفكر فيه . ثم قالت فجأة :

ـ « وكيف تكون هذه ؟ أصلبة هى أم لينة ؟ »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « الأسماك الصناعية »

ـ « هى لينة كالحقيقية »

ـ « وماذا تصير لو أنها أخرجت من الماء ؟ »

ـ تصير كالأسماك الحقيقية بالضبط ، إذ تبغى استنشاق الهواء وترتجف بضع مرات ثم تجمد ولا تتحرك كأنها ميتة . »

ـ « ثم بعد ذلك ؟ »

ـ « ثم بعد ذلك . . . تنتن وتفسد »

ـ « وإذا مادفعها إنسان إلى هر ؟ »

ـ « يلتهمها كأنها سمكة حقيقية »

* * *

وفى المساء التالى جلست وإياى فى البهو تنتظر رينيه ، فقد ذهب لشراء بعض لفافات من التبغ

ـ « مينى ، مادامت هذه الأشياء تشغل بالك فسأفصح لك عن سر عظيم . بعد أن اخترعت الأسماك الصغيرة ، حاول العلماء خلق أحياء أخرى . فاخترعوا العصافير مثلاً . عصافير صغيرة تحفظ الغناء »

ـ حقاً ، إننى شاهدتها وهى من صنع (نورمبرج) من أعمال ألمانيا ، ويجب أن نملأ الزنبرك إذا ما أردنا سماع غنائها . ورغم أنها تحرك المنقار والرأس فانها لا تطير ، وهى صلبة كالمعادن . »

ـ كل ذلك صحيح يا مينى . ولكن العصافير الأولى كانت كالعصافير الحقيقية تماماً . كانت كالأسماك التى شاهدناها فى طريق اللوفر . والآن أفضى اليك بذلك السر العظيم ، ولقد أردت أن أدلى به اليك من قبل ولكن الفرصة لم تسنح لى . قلت لك خلق العلماء أحياء أخرى ثم . . . ولكن يجب أن تقسمى ألا تذكرى ذلك لأحد »

ـ « حسن ، أقسم على ذلك »

ـ « ثم . . . ثم خلقوا آدميين »

ـ « يا إلـه السماء . . . ! »

ـ « خلقوا اثنى عشر شخصاً : ستة رجال وست نساء »

ـ « يا إلـهى . . . وكيف كان هؤلاء ؟ »

ـ « هم كتلك الأسماك . هم مثلى ومثلك »

ـ « ولكن أين هم الآن ؟ »

ـ « هذا مالا يعرفه أحد . وبذا حفظ السر . فبعد أن خلقوا خرجوا من المعامل . وأخذ الناس تبحثون عنهم دون جدوى . ولا يعرف غير الله موضعهم »

ـ « ولكنهم تدثروا بالملابس ؟ »

ـ « طبعاً ! »

ـ « ومتى كان ذلك ؟ »

ـ « منذ أكثر من سنة »

ـ « وأين ساروا ؟ »

ـ « هنا ، هنا فى باريس . وكانوا كاملين فى كل شىء ، ولا يمكن تمييزهم من الآدميين الحقيقيين . تصورى يامينى أننا قد نكون تقابلنا مع أحدهم دون أن نعلم »

ـ « لا ، لا . إننى أشعر بالشيب يدب فى رأسى ، لقد اعتزمت ألا أخرج من المنزل ، ويجب على الناس أن يبحثوا عنهم . ولماذا لايعثرون عليهم ؟ وواجب هؤلاء أن يقولوا بأنهم ليسوا آدميين حقيقيين

ـ « ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك كله . إنهم يعتقدون أنهم من لحم ودم كبقية خلق الله »

* * *

واختل تفكير مينى ، ولم أفلح أنا ورينيه فى تشتيت تلك الأفكار الخبيثة عنها . وقد أقسمنا لها بكل عظيم « أننا لم نبغ إلا الهذر من كل تلك الأمور »

ـ « هذا تذكرانه لى الآن حتى أهدأ بعض الهدوء ، ولكنى أعرف وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل ماذكر لى قد

وقع ، ومن يدرى ؟ ربما كان ذلك الرجل القادم . . . . . لا ، لا . . ! لنرجع ثانية الى المنزل

وكانت كلما مرت برجل فى طريقنا ظنته صـناعياً . وفجأة تأوهت ، وأحجمت عن السير . ورأت فى بيتها ملجأها الوحيد ، ولتبق هى فى غرفة منه نائية ، أو فى ركن منه مظلم . ولم تتزحزح هذه الأفكار عن مخيلتها ، وقد تراكمت فكانت أثقل من جبل ، وفى الليل كانت تزعج وتصرخ فى منامها . فكنت أنا ورينيه نوقظها . وكنا نقسم لها أغلظ الأيمان من جديد . غير أنها كانت تعتبر كلامنا غير أهل للأجابة عليه ، وبدأ الشك والسوداء يستوليان عليها . وأخيراً قال لها رينيه :

ـ « ماذا يحزنك يا مينى ؟ »

ـ ماذا يحزننى . . ؟ لا يعرف أحد إذا كان الذى ينظر إلى أو الذى يكلمني هذا من لحم ودم . لا ، لا ، أولى لى أن أموت !

ثم أدارت رأسها فى حركة ميكانيكية وقالت :

ـ « وأنما لا تعرفان . . . »

ولم يكن فى مقدرة أحد أن يغريها بترك باريس . ولماذا ؟ قد يكونون متفرقين فى بقية العالم

وكانت لا تود رؤية أحد حتى خادمتها الصغيرة لم تطق رؤيتها فى المنزل . ثم لزمت الفراش لا تفارقه

وكنت أنا ورينيه نتناوب السهر عليها ، ونقدم لها الطعام فلا تأكل منه إلا يسيراً . وكانت حياة ملؤها وخز الضمير . وعند ما كانت تغفو كنا نستدعى الأطباء سراً ، ليشيروا بعلاج يرجع لها رشدها . ولكن تلك الفكرة التى لازمتها كانت تتوغل فى الصميم ، فتركزت أفكارها حول نقطة واحدة . . .

« ربما كان أحدهم من رأيته أو حادثته . . . »

وكانت حياة كلها نكد ، يزيد فى ظلماتها الذنب المشترك .

وكنت أنا ورينيه نمضى الساعات دون أن ننبس بكلمة أو ينظر أحدنا إلى صاحبه

وفى ذات يوم تولانا الرعب من فكرة طارئة . ماذا يكون الحال يا ترى لو خيل إلى مينى أن أحدنا أو كلينا من أولئك الرجال المصنوعين ، الذين يفزع منهم الشياطين لمجرد ذكرهم أو تخيلهم . ألم نكن نحن أول من قال لها عن هذا الأختراع السخيف ؟

ولكن هذه الفكرة لم تستول عليها ، بل اكتسحت مخيلتها فكرة أشد خطراً وأبعد غوراً

كانت ليلة من ليالى الربيع . وقد غرقت مينى فى النوم الهادىء ففرحنا . وفتحنا النافذة ، وأطللت أنا ورينيه على الطريق نتسلى برؤية النجوم مرة ، وبانعام النظر فى الظلام المخيم على جوانب الشارع مرة ، وتارة كانت تستلفت أنظارنا الأنوار الحمراء التى تضىء أسماء الحوانيت ، وتارة أخرى تسترعى أبصارنا الأعلانات الوضاءة . . .

وعلى حين فجأة سمعنا صوتاً جهورياً مرتجفاً . ولما نظرنا خلفنا وجدنا مينى واقفة فوق سريرها باسطة ذراعيها ، وتكاد تنخلع من الرعدة . فأسرعنا إليها ولكنها فزعت منا . وقذفت بنفسها من السرير فارتطمت بالمرآة . وحدقت أولاً فى قميص نومها ثم فى قبضة يدها . ثم دفعت وجهها ليلتصق بالمرآة . ونظرت الى صورتها وحدقت فيها كأنما تريد اكتشاف كنه ماهيا

ـ « أى نعم ، إن الأمر لهو كذلك . إننى أراه جلياً واضحاً . نعم ، إننى أنا هو . إننى لست من لحم ودم . كلا ، كلا . إننى أنا ذلك الأنسان الصناعى وما كنت أدرى ذلك من قبل » .

فصاح كل منا :

ـ « مينى ! »

ـ « لا . إننى أفهم الآن كل شىء . إننى متأكدة أنكما لن تمرفا ذلك . . . . ولكن ماذا أنا فاعلة الآن ؟ وماذا فى وسعى أن أعمله ؟ سامحنى يارينيه ! الذنب ليس ذنبى »

حاولنا أن نمسك بذراعيها ، وهى تحدق فى الفضاء . ولكنها رفعت يدها وأشارت بها نحو الباب وقالت :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

ـ لا شىء ، لا أحد يامينى ، هدئى روعك !

ـ ولكن هنالك . . . ، هنالك ، من هنالك . . ؟ انظروا انظروا من هو ؟

وشعَّ ضوء مخيف من عينيها كما وجهها ضياء جافاً ، وانطلت علينا الحيلة ، وذهبنا الى الباب لنهدئ من حدتها . وما كدنا نصل حتى التفتنا الى الخلف دون سبب ، ولكن بعد أن فات الأوان ، إذ وقفت مينى كعفريت من الجن على حافة النافذة . فلم نتمالك من الصراخ وهرعنا اليها . ولكنها كانت قد قذفت بنفسها الى الشارع . ولم يبق منها إلا قطعة من قميص نومها معلقة فى يد رينيه . وساد السكون ثوانى حسبناها ساعات وإذا بجسدها يرتطم بالأسفلت فيقضى على أنفاسها وعلى هواجسها

عربها عن الألمانية ا . ا . ى

من أقاصيص الجاهلية

حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

ـ « ما عهدتك تمضي ليلتك في السامر ياجساس ، أكان حديث القوم عذباً فالقيت إليه السمع ، أم كان لسانك ذرباً فدفعت عن بكر ؟ »

ـ « نعم ياخالتاه . لقد دفعت عن بكر بلسان صدق في السامرين ، ودفعت هذه الفرية التي يسددها كليب لنا في كل مجمع وناد ، ولم أنس يا خالتي أن أدفع عنك مقالة السوء التي نالك بها كليب ، فقلت للقوم : إنكم تعلمون موضع البسوس من أهلها وتعلمون موضع أهلها من العرب . ومن كانت في هذا الشرف من القوم فما أبعدها عن السماية والوقيعة . وما نقموا من البسوس ياقوم إلا ما اشتهرت به من حماية الجار ، وحفظ الذمار ؛ وهي بعد ليست ثرثة[1] ولا نمة . واندفعت ياخالتاه أقرع حجج كليب حجة بعد حجة : وأرد فرياته فرية بعد فرية ، فاذا القوم على كليب ساخطون ، وعلى بكر وبني شيبان عاطفون . »

هشت البسوس بنت المنقذ التيمي لمقالة جساس ابن أختها ، وضمته إلى صدرها وقبلته في مفرقه . واستوت تقص عليه ماسمعت من نساء الحي . ولم يكن للحي من حديث في سامرهم وناديهم ومجمعهم إلا مابين بكر وتغلب من إحن وحفائظ أخذت البسوس على نفسها عهداً باذاعتها في القوم وإفشائها في غير قصد ولا أناة . قالت : « هذا كليب بن ربيعة التغلبي قد أخذته العزة بالاثم وبغى على قومه لما دانوا به من الطاعة له والانقياد لسلطانه ، حتى بلغ من بغيه أن يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويحمي الوحش في مسارحه فلا يهاج ، ولا تورد إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره . ولقد أخذت الناس رعدة من قوته وسلطانه . وضربوا الأمثال بعزته وطغيانه ، ومامبعث هذا البغي وهذا الطغيان إلا النصر الذي أحرزه يوم خزازى حين قاد معداً ففض جموع اليمن . وما النصر يحرزه القائد إلا الفضل الذي أفاضه عليه الجنود ، بالتفافهم حول لوائه واندفاعهم على العدو . فما كان القائد ليحرز نصراً لو تخلى عنه الجنود . ولكن قد يحرز الجند نصراً وقد ولى عنهم القائد . على أنه يا ابن أخت ، لوكان فيه ذمامة من حياء ، أو بقية من وفاء ، لما تعاظم على قوم رفعه ، ولا تكاثر على شعب رفده . ولو كان ممن يرعون العهد ويحفظون الذمار لرعى عهد النسب وحرمة القربى ، ولرعى الصلة الوشيجة ، والخاصة الوليجة . أليست زوجه جليلة وهي أختك ؟ إن أعجب ياجساس فما أعجب إلا لصبر هذه المسكينة عليه ، وسكوتها على بغيه ، وهي زوجه أولى الناس بتقويمه إذا اعوج ، وتليينه إذا صلب ، وسياسته إذا شط ؛ وهي أولى الناس بالمدافعة عن أخيها وعن خالتها ، وما ادخر كليب وسعاً في النيل من أخيها ومن خالتها . لا أبغي يا جساس من قولي أن أنغل[1] بينك وبين أختك ولا بينك وبين كليب . كلا . ولا أن أبذر شقاقا بين جليلة وزوجها ، ولكني أرى من كليب بغياً واستهانة ، وأرى منك ضعفاً واستكانة ، وأرى من جليلة صمتاً المذلة وصبراً على الهوان . وكأني بك تقرها على صمتها وترضى عن صبرها . وأنت لا تقل عن كليب في طول النجاد ، ورفعة العماد ، على يفاعك وحدث سنك . »

قام جساس وقد استحصد ، وغلى الدم في راسه وركبه الشيطان ، وأقسم ليقصمن ظهر كليب ، ولينصرن عشيرته ، ولينضحن عن بني شيبان . ثم احتواه الليل فبات يرعى النجوم ، ويستعرض الهموم ، حتى انبلج الصبح فاذا هو يسعى إلى البسوس يقص عليها ما جاش به صدره ، وما استقر عليه عزمه . قال : « ياخالتاه . لقد قدحت الذهن حتى استعر ، وعببت الرأي حتى اختمر ، وشاورت النفس فطاب لها الحمام ، وغمزت العزم فألفيته شديد المُرام ، وأنا اليوم على أن ألتمس كليباً في غرة فأنتقم لبكر وبني شيبان ، وأرفع عنهم الذلة والهوان . »

قالت : « وهل شاورت الحي فيما اعتزمت ؟ »

قال : « الرأي الخطير كالجمرة المستعرة كلما تداولتها الأيدي

(١) الثرة كثيرة الكلام والنمة النمامة

(١) أنغل بينهم أفسد ونم

فترت حرتها وانطفأت جذوتها . وما يركن ذوو الرأى إلى المشورة إلا حين تعجز هممهم عن النفاذ ، وتقعد عن النجاز ، فيلتمسون لدى الناس رأياً يتخذونه لقعودهم سبباً ، ولعجزهم تعلة ، وأنا إن أصحرت بالتدبير فما آمن أن ينتهى الى كليب فيمتنع ويتقى . »

وكانت البسوس قد استودعت سراً . . .

وكان ما أفضى به جساس إلى البسوس حديث القوم فى سامرهم وناديهم تتناقله يشكر وشيبان ، وذهل وقيس ، ووائل وبكر ، وغير أولئك من القبائل والبطون والأفخاذ

* * *

وفى ضحوة من النهار اجتمع عند البسوس : همّام بن مرة أخو جساس ، والفِنْد الزِّمّانى سيد بكر وفارسها وشاعرها ، وبسطام بن قيس فارس بنى شيبان ، وأبو فَيْد عمرو بن الحرث السدوسى ، والحرث بن عباد فارس النعـــامة وفارس ربيعة وشاعرها . وجلس جساس مطرقاً ينكت الأرض بعود فى يده والقوم ينظرون اليه وينظر اليهم فى حيرة ووجوم

قال بسطام : « ما بالك ياجساس تحبس النفس على الأذى ، وأنت فينا تنظر عنة فلا تجد إلا فارساً مغواراً ، أو أسداً كراراً ، وتنظر يسرة فلا تجد إلا بصيراً فى الرأى ، أو نصيراً فى الشدة ؟ »

قال جساس : « أعلم ذلك . وأعلم أنه لايدفع الهون ولا يرد البلاء إلا سفك الدماء » قال همام بن مرة . « إنه لكذلك . . »

قال أبو فيد : « أما الهون فقد لحق بكراً حتى أذلها ، وأما البلاء فقد وقع ماله من دافع . وأما الصبر عليه فأمر يرجع اليكم ويعود عليكم ، ولست أدرى إن كنتم لكليب وتغلب أكفاء فى القتال ، ولكنى أعلم أنكم لاتقلون عنهم فى الشرف ، ولستم دونهم فى المنزلة ، فان كنتم على هذا تصبرون ، فقد رضيتم من العيش بالدون ، وإن أحكم الذل وقام رجالكم للحرب يؤرّجون [1] فانى برئ مما تفعلون »

فنهض الحرث بن عباد ، والفند الزمانى مغضبين وقدهم أحدهما بأبى فيد يمصر عنقه وقالا أو قال أحدهما : « ثكلتك أمك يا رسول الوقيعة ، تحمس الرجل وتستثيره ، وتنغل بينه وبين القوم ثم تقول إنى برئ مما تفعلون ؟ لشد ما أمعنت فى

(١) التأريج الأغراء، وسمى أبو فيد المؤرج لتأريجه هذه الحرب

الوقيعة والسعاية ، ولعمرى ما مؤرج الحرب إن قامت إلا أنت . قم لادر ضرعك »

وفر ابو فيد لايلوى على شئ

« وأنت يا جساس أصلح من شأنك ، وهون عليك بأسك ، واستشر الحكمة ، واستلهم الصواب ، ولا تبرم الرأى إلا بعد التدبير ، ولاتعقد العزم إلا بعد التفكير ؛ ولك من رعاية الله خير معين ونصير »

وانفض مجلس القوم ، ودخل جساس الى فناء البسوس واجماً مطرقاً

قالت البسوس : « هون عليك فالخطب أيسر مما ترى ، ولعل الخير فى الأناة ، قم فلقد رثأت [1] لك لبناً لعله يفثأ غضبك » قال : « مابى حاجة الى الشراب » قالت : « هو لبن احتلبته من سراب ناقة سعد وقد استودعنيها وأحل لى حليتها . » قال : « لا » ، ومضت البسوس الى شأنها ، ولبث جساس مطرقاً

وما هى إلا فينة حتى عادت سراب تشخب دماً . واستبانت البسوس ما بها فاذا كليب قد اشتد عليها بسهم فخرم ضرعها ؛ فنفرت وهى ترغو وعادت الى حظيرتها . وما نقم كليب منها إلا أنها تبعت إبلاً له ودخلت ترعى فى حماه

صاحت البسوس : واذلاه ! واجاراه !

وقام جساس يتبين الخبر ، فلما وقف على ماكان قال : « اسكتى ياخالة فليقتلن غدا جمل هو أعظم عقرا من ناقة جارك »

واعتقل رمحه وخرج الى الفلاة يتوقع غرة كليب . وتبعه عمرو ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه حتى لقيا كليباً فى حماه فقال له جساس « يا ابن الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها » قال كليب « أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟ » ولم يجبه جساس إلا بطعنة قصم بها صلبه ، وثنى عمرو بطعنة من خلفه قطعت بطنه . ووقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس « أغثنى بشربة ماء » قال « تجاوزت شُبَيْثاً والأَحصْ » [2]

قال الراوى : وكانت الحرب بين بكر وتغلب ، وسميت حرب البسوس ، وقيل فى ناقتها « أشأم من سراب » ولبثت الحرب أربعين عاماً . وسأقص عليك من أنبائها عجبا ؟

أخرجها : اليوزباشى أحمد الطاهر

(١) رثأ اللبن حلبه على حامض فخثر . وفى المثل أن الرثيئة تفثأ الغضب أى تسكنه (٢) موضعا ماء بتهامة



عيد « التيمس » المائة والخمسون

احتفلت جريدة « التيمس » The Times أخيراً بمرور مائة وخمسين عاما على انشائها وأصدرت بهذه المناسبة عدداً خاصاً هو آية من آيات الصحافة الحديثة فى تحريره وفى طبعه ؛ وفيه تقص تاريخها منذ إنشائها ، وتستعرض المراحل والعصور المختلفة التى مرت بها ، والحوادث والأعمال العظيمة التى ساهمت فيها واستطاعت أن تؤثر فى مجراها ، وعلاقاتها ومواقفها المختلفة إزاء الأمبراطورية البريطانية . وقد تلقت « التيمس » بهذه المناسبة سيلاً من التهانى ، من معظم حكومات العالم وملوكه ، ومن سفراء الدول المختلفة فى لندن ومن أقطاب العلم والأدب فى سائر أنحاء العالم

والتيمس فخر الصحافة الانكليزية ، وتاريخها ليس تاريخ صحيفة عظيمة فقط ، ولكنه تاريخ لصفحات باهرة من الجهاد السياسى والعلمى والأدبى ، ومعرض بديع لتقدم الصحافة الكبرى خلال القرن الماضى . وقد انشئت « التيمس » فى سنة ١٧٨٥ ، أنشأها جون والتر (الأول) باسم « السجل اليومى العـــام » Daily Umiversal Register ثم غير الاسم فى يناير سنة ١٧٨٨ الى اسمها الحالى وهو « التيمس » . وكان جون والتر صحفياً بالفطرة ، وافر المقدرة والبراعة ؛ وكان شعاره أن يخرج صحيفة معتدلة الثمن سباقة الى الأخبار متنوعة المواد قوية عواردها واعلاناتها ، وفى سنة ١٨٠٣ خلفه ولده جون والتر (الثانى) فى تحرير الصحيفة وإدارتها ؛ وفى عهده دخلت التيمس فى عهد جديد من القوة والتقدم ، وقامت بدور هام فى إذاعة حوادث الحروب النابوليونية وفى الدعاية ضد نابليون ، وكثيراً ما كانت تسبق الى نشر الأخبار قبل أن تعلم بها الحكومة . وفى سنة ١٨١٧ تولى تحريرها السياسى كاتب قوى هو توماس بارنس ، فسار بها سريعاً فى طريق الزعامة السياســـية ؛ وكان يستخدم لمعاونة أقطاب الأحزاب والحكومة مثل دزرائيلى ولورد بروجهام وسترلنج فى الدعوة الى سياسة مستقلة تميل الى « المحافظة »

وبلغ من نفوذ بارنس أن وصف بأنه « أقوى رجل فى انكلترا » وفى ذلك العهد بلغت « التيمس » فى تنظيم الأخبار الداخلية والخارجية والأبواب الصحفية ذروة القوة والطرافة ، واشترك فى تحرير أقسامها الأدبية والفنية اعلام العصر وفى مقدمتهم ماكولى وثاكرى وتوماس مور ؛ وتقـــدم استعدادها الفنى والطباعى تقدماً مدهشاً

ولما توفى بارنس سنة ١٨٤١ خلفه فى تحرير القسم السياسى تادوس دلاين . وفى أيام حرب القرم (ســنة ١٨٥٣) بعثت التيمس إلى ميدان القتال بمراسل حربى شهير هو وليم رسل ، وذاعت شهرة التيمس يومئذ بما كانت تنشره من الملاحظات الفنية والأخبار الطريفة . واستمر دلاين فى إدارة التيمس السياسية أعواماً طويلة ، وجعل منها أداة سياسية مستقلة ، وكان من معاونيه فى تحرير القسم السياسى أعظم ساسة العصر وكتابه . ولما توفى جون والتر الثانى سنة ١٨٤٧ ، خلفه ولده جون والتر الثالث فى ملكية الجريدة ؛ وفى عهده تقدمت من الوجهة الفنية تقدماً عظيماً ، وزودت بأحدث آلات المصر ، وخلف دلاين توماس شنرى فاستمر فى توجيــه سياسة التيمس حتى وفاته سنة ١٨٨٤ ، ثم خلفه (بكل) ؛ واشتهرت التيمس فى هذا العهد بحملاتها على جلادستون ومعارضته فى سياسة « الهوم رول » فى ارلنده ، وحملاتها على الزعماء الارلنديين وما وجهته إليهم من تهم اقتضت تأليف لجنة حكومية للتحقيق ، وغرمت التيمس فى هذا السبيل مبالغ طائلة ، ووقعت على رغم انتشارها وازدهارها فى مصاعب مالية ولما توفى صاحبها جون والتر الثالث فى ســنة ١٨٩٤ ، وضع نظام للفصل بين ملكية الجريدة وآلات الطباعة ، وبذلت محاولات عديدة لأنقاذ الصحيفة من متاعبها المالية ولكنها برغم ذلك أشرفت على الأفلاس ووصل أمر الشركة الى القضاء ، فقرر بيعها . وفى سنة ١٩٠٧ عرضت التيمس بعد مائة واثنين وعشرين عاماً من تأسيسها للبيع ، فاشتراها اللورد نورثكليف وتولى ادارتها مبرلى بل ؛ وجددت آلاتهـــا وعددها الفنية ؛

وفى عهده أنشأت التيمس ملحقها الأدبى، وملحقاً للتربيـة، وملاحق أخرى. ولما توفى سنة ١٩١١ خلفه جوفرى داوزون مديرها الحالى. واستمرت التيمس تخفض من ثمنها حتى بيعت بنس واحد (سنة ١٩١٤) وترتب على ذلك مضاعفة انتشارها حتى بلغ ماتبيعه ١٥٠ ألفا. ودخلت الحرب الكبرى بهذا الرقم؛ وأدت أثناء الحرب خدمات جليـلة للجيش والصليب الأحمر، واستطاعت أن تجمع للصليب الأحمر وحده ستة عشر مليوناً. وأصدرت أثناء الحرب تاريخها الشهير عن الحرب ودائرة المعارف للحرب وغيرها

وفى سنة ١٩٢٢ توفى لورد نورثكليف فاشترى ملكية الصحيفة جون والتر (الرابع) وعادت التيمس بذلك الى ملكية الأسرة التى أنشأتها، واشترك معه الماجور آستور

هذا هو ملخص تاريخ «التيمس» ولا تزال الصحيفة الكبرى الى اليوم محتفظة بنزعتها المستقلة مع ميل الى المحافظة. ومع أنها تقل فى الانتشار عن كثير من الصحف الانكليزية الأخرى، فأنها لا تزال فى طليعتها من حيث النفوذ السياسى والمقام الأدبى

مباحث علامة اجتماعى

يقوم العلامة الاجتماعى الرومانى الأستاذ جوستى بأبحاث وتجارب طريفة لأثبات نظرياته الاجتماعية وتطبيقها. والأستاذ جوستى من أقطاب علم الاجتماع المعاصرين، وقد ذاع صيته ونظرياته فى جميع الأوساط العلمية الغربية؛ وكان الأستاذ مدى حين وزيراً للمعارف الرومانية؛ وهو الآن أستاذ الاجتماع فى جامعة بوخارست ورئيس المعهد الاجتماعى. وقد دعته جامعة باريس أخيراً ليقوم بعرض بحوثه ونظرياته؛ وتلقت جريدة «الجورنال» منه شرحاً لطريقته خلاصته، أنه يقوم بأبحاث جغرافية وجنسية واقتصادية. وفولكلورية (ما يتعلق بالأمثال والعادات الشعبية) فى القرية ويدرسها كوحدة اجتماعية، وأنه هو وتلاميذه قد اختاروا بعض قرى ترانسلفانيا، وقسموا السكان أصنافاً بحسب السن والحالة والأسرة؛ واختاروا بعض الأسر ووضعوا لها شجرة أنسابها، ووضعوا تاريخاً لملكياتها وتقلب أحوالها، وكذلك وضعوا قوائم خاصة بأحوالها المعيشية وتربيتها وميزانياتها إلى غير ذلك. ويعتمد الأستاذ جوستى على هذه المباحث الدقيقة فى وضع نظريات بخصوص الوحدة الاجتماعية الحديثة، وهى القرية، وهو فى طريقته هذه يشبه ابن خلدون فى اعتبار القبيلة وحدة اجتماعية للبادية وبناء نظرياته على أساس أحوالها وتطوراتها

الثقافة النسوية النازية

تقوم اليوم فى ألمانيا ثقافة نسوية خاصة هى إحدى ذيول الحركة الفكرية النازية؛ وقد تناولت إحدى الزعيمات النازيات شرح هذه الثقافة فى جريدة «بيرزن تسيتونج» وتحدثت عن مسألة الأزياء وأثرها فى تطور نفسية المرأة؛ فقالت إن الثقافة النسوية الجنوبية لاتناسب الشعوب الشمالية؛ ذلك أن الجنوب يجد مثله الأعلى فى المرأة فى الشباب والجمال الغض، ولكن الشمال يراه فى الأمومة، وتتطور الأزياء تبعاً لهذه المثل. وقد كان لاقتباس الأزياء وأسباب التجميل الجنوبية أثر سيء فى المرأة الشمالية، فى جسمها وفى أذواقها وفى روحها. ولهذا يدعو النازى الى الرجوع الى المثل الشمالية القديمة فى رد المرأة الى حظيرة الأسرة والأمومة

الذكرى الألفية للمتنبى

استفاض الحديث فى جميع الأقطار العربية عن عزم الحكومة العراقية على اقامة مهرجان فخم للشاعر العبقرى أبى الطيب أحمد المتنبى بمناسبة مرور ألف عام على وفاته. وقد تريثنا فى نشر هذا الخبر لأنه لم يَعْدُ أن يكون حديثاً من أحاديث المنى لم تَعِد به حكومة ولم تتعهد به جماعة. على أننا ماشككنا قط فى أن العراق سيهتبل هذه الفرصة ليجعل من هذا العيد الأدبى مظاهرة عربية تحتشد لها قلوب العرب وأصدقاء العرب ليهتفوا على ضفاف الرافدين لهذا الشاعر الخالد. وكان اليقين أن العراق منبت هـذا النبوغ لا يدع السبق الى هذا العيد لقاهرة كافور أو لحلب سيف الدولة، ولكنا تلقينا من صديقنا الشاعر الجليل الأستاذ الزهاوى كتاباً يذكر فيه أنه كان قد أعد لمهرجان المتنبى قصيدتين صغيرة وكبيرة، فلما رأى قومه انصرفوا عن هذه الفكرة فلم يعودوا يحفلون بها ولا يعملون لها، بعث بهما الى الرسالة، فنشرنا الصغرى فى عدد سابق، ونشرنا الكبرى فى هذا العدد. ويقينا نقلب الخبرين ثقتنا فى المخبر، وعلمنا بعصبية العراق، فلا نجد له مساغاً فى وجه من الوجوه

وفاة فيلسوف وزعيم صينى

من أنباء الهند الصينية أن الزعيم الفيلسوف «بام بوى شان» قد توفى فى مقامه المنعزل على مقربة من «هوى» (الهند الصينية) فى نحو السبعين من عمره؛ وكان «بام بوى شان» من تلاميذ المدرسة الصينية القديمة، ومن أقطاب مفكريها؛ بدأ حياته

[البقيـة على صفحة ١٦٠]



المســـــاء

Le soir

لشاعر الحب والجمال لامرتين

قال لامرتين : « كنت منذ شهور قد نفدت موضوع الحماسة والحب ، فذهبت أقبر نفسي في ظلام العزلة عند أحد أعمامي في قصر (دورسي) لدى تلك الجبال الموحشة الشجراء من أعالي بورجونيا ، وهناك نظمت هذه الأبيات في تلك الغابات التي تحيط بذلك القصر »

أقبل المساء وهمدت الأصوات ، وأنا جالس على الصخور الجُرْد أتابع بنظري مركبة الليل وهي تتقدم في معامي الفضاء

ثم لاحت الزُّهرة في حاشية الأفق ، وأرسل الكوكب العاشق على الأرض ضوءه الخفي ، فتمشع تحت قدميَّ خضرة الروض

ومن دوحة الزان ذات الورق الفينان واللون الأحْوَى ، أسمع اختلاج الأغصان ، كما تسمع خفقان الأشباح بين أجداث الموتى

وعلى حين فجأة انفصل من كوكب الليل شعاع تسال إلى جبهتي الساهمة ، ومس في لين عيني الحالمة

أبهذا الانعكاس اللطيف للكرة الملتهبة ! أيها الشعاع الباهر ماذا تبتغي مني ؟ أجئت تحمل إلى أحشائي المضطربة قبس النور إلى نفسي وعيني ؟

أهبطتَ من السماء لتفضي إليَّ بسر العالم ، وتلقي عليَّ دفائن هذا الكوكب الذي يبعدك النهار إليه ؟

هل أرسلتك عناية خفيـــة إلى البؤساء ، لتضيء قلوبهم بنور الرجاء ؟

هل هبطت لتبدد الظلام عن وجه الغد لتلك القلوب الكبيرة التي تضرع إليه ؟

أيها الشعاع الآلهي أأنت فجر ذلك اليوم الذي لا انقضاء له ؟

إن قلبي يشتعل في ضوئك ، وشعوري يتملكه مرح مجهول ، وفكري منصرف إلى أولئك الذين محا ظلهم في الحياة ؛ فهل أنت أيها الضوء اللألاء ، أرواح أولئك الأحبّاء ؟

أنا أشعر بأني أقرب ما أكون إليهم ! فلعل أرواحهم السعيدة قد لبست صورهم البعيـدة ، ثم عادت تطوف بهذه الربوع ، وتجوس خلال هذه الغيضة

فاذا كنت أيتها الأشعة أشباح الأحبة ، فعودي إليَّ في كل مساء ، بعيدة عن الغوغاء والضوضاء ، لتمتزجي بأفكاري وأحلامي ، وتنيري ظلام لياليَّ وأيامي

أعيدي السلام إلى صـــدري المضطرب ، والحبَّ إلى قلبي الملتهب ، واسقطي على كبدي كما تسقط أنداء الليل على قيظ النهار ولفح الهاجرة

تعالي إليّ وأقبلي علي ! ... ولكن أبخرة محزنة تصاعدت من جنبات الأفق فحجبت ذلك الشعاع اللطيف ، ثم غابت هي وهو في ظلام كثيف !

الزيات

دجـــلة

للأديب التركى شهاب الدين

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

قطعة منثورة كتبها أديب كبير من أدباء الترك المعاصرين — جناب شهاب الدين الذى أحزن الأدباء نعيه العام الفائت

ولست أرى القطعة تمثل حياة البادية عامة ، ولكن حياة جماعة على شاطىء دجلة ، ومهما يكن فقد أحسن الكاتب تصوير ما رأى حقيقة أو خيالا ، وهى نموذج من الأدب التركى الجديد جديرة باطلاع قراء الرسالة

تجرى دجلة واسعة كذكاء العرب ، قوية كروح العرب ، تلوح مرة لجة ترابية مائجة ، ومرة شريطاً من الحرير سماوىّ اللون ، وحيناً تتمعّج كأزقة بغداد ، وآخر تسير أقوم من شوارع باريس ، وهنا تتحوّى مضطربة ، وهناك تمتد مطمئنة ..

هذا النهر المبارك الذى يحمل فى أحضانه ربيعاً من البركات يتفصّى من الأبنية البشرية عند القُرنة ، فينفذ فى غابات النخيل فكأنه بلغ بيئته المحبوبة ، فوجه أكثر حرّية وأشد زخوراً وأعظم وقاراً وجرأة

يعيش النبات فى البلاد المعتدلة والشمالية بمساعى الانسان ، وهنا فى المناطق الحارة على العكس ، يعيش الانسان فى حمى الأشجار والأعشاب ، ولا سيما غابات النخيل

يزيدنى النظر والتأمل إيماناً بأن سكان هذا الاقليم هى هذه الأشجار المهيبة ، وما أبناء نوعنا إلا ضيوف ظلالها . ترى عيناى الآن نخلة نخوراً (١) متفرّدة ، فيالله كيف سمقت مزهوّة ، وكيف نمت وانتشرت عُسُبها وخوصها فى أبهة وجلال . هذه النخلة تنادى فى كبرياء وعظمة أن هذه التربة لها ، وأن غيرها لا يستطيع أن يكون مالكا طبيعياً لهذه الأرض

إذا ما انتهت غابات النخل بعماراتها (٢) الخضراء انطفأت الحياة على شاطىء النهر . فلا شىء يبدّل قسوة الصحراء هنا إلا كثبان الرمال الشاحبة التى تبدو فى الأفق صغيرة كأنها القبور ؛ والى الجانبين بحر من الرمل ليس له ساحل . وها نحن أولاء نشق سكوت الصحراء وسكونها . لا حجر ولا شجر ، ولا حيوان ولا ظل ؛ ولكن ضياء — ضياء مطرد يزيغ البصر من كل جانب . لا حركة ولا شية من حركة إلا ملاعب الضياء . وفى الكائنات التى حولنا ركود وصمت ، وضياء محيط مسيطر ، دائم لا يحول . يحسب الانسان أن هذين الشاطئين لم يهتزا بالحياة قط ، ولا دوى عليهما صوت قط ، ولا وقع عليهما ظل قط ، وأنهما من الأزل بغير حياة ، وكذلك يذهبان الى الأبد

انبسطت هذه الصحراء الذهبية الخالية من الأنس ، والغُفل من الصناعة . ثم انبسطت حتى صارت جمالاً نائماً غير محدود

سأكتفى بتسجيل المشاهد صادقاً كالسينما محرراً من قيود البلاغة . هاهنا قرية فقيرة تؤلفها عدة من أكداس اللّبن جاثمة على الرمل القفر ، مغبرّة كالتراب ، ميتة كالصحراء ، أشد اقفاراً من الخرابة المهجورة ، كأنما الرمال اختمرت ثم ربت فكانت القرية . ولو لم أر نفراً من البُداة جالسين القرفصاء لظننت أن كلاب البحر (١) أنشأت هذه القرية الحزينة . كذلك كانت فى فقرها وحقارتها . . . . ما أهل البادية إلا نبات بشرى غريب ، سىء الجد ، لا سعى دائب فى الدماغ ، ولا عمل عظيم فى العضلات ، كل قُوى حياتهم مصروفة الى القعود والنوم والهضم والتناسل ، ينمو واحدهم كجذع نخلة فيكبر فيثمر فيجف . كذلك ترجمة كل أطفال البادية

إنما يشكو البدو أربعة أشياء : الذباب والحر والجوع والجُباة . فأما الذباب فيذبه ، وأما الحر فيروّحه بسعف النخيل ، وأما الجوع فيدفعه بما يلتهم من الأرز الكثير ، وأما الجباة فكلما ذكرهم حرّق الأرّم من تحت شاربيه

تتجلى روح الطفولة فى بنى الصحراء جميعاً ، صغيرهم وكبيرهم ؛ فمن كل شىء سرور وضحك ، ومن أتفه الحادثات وسيلة الى القيل والقال ، والظل بل العدم ينطقهم ويضحكهم ساعات . وهم ماداموا أيقاظاً يتحدثون ويضحكون ، ويضحكون ويتحدثون ، والعالم عندهم لعبة كبيرة ، وحادثات العالم لعب ولهو . البدوى يعمل قليلاً . يعمل فى غير جدّ ، يعمل لتكرار ما أورثه آباؤه . لا يحب التغيير ، وهو غريب عن دخائل الأشياء ، قد نسى الماضى ، وتوهم الغد جنيناً لمّا تحمله أمه . وحساب ربحه وخسارته محدود بأربعة وعشرين ساعة . يسكره السرور ويُيتمه اللون والرُّواء ؛ مولع بالمطر والسكر ، الصباح الذى يأكل فيه العسل سعيد ، والمساء الذى يقاسى فيه البصل شقى ، فبالعسل والبصل يتحرك ميزان سعادته . وإذا نالت يده رائحة ذكية ، ولقمة حلوة ، وامرأة مؤنسة ، حسب نفسه أسعد ملوك العالم . فراشه الرمل ، ولحافه السماء ؛ وأجمل أحلامه غصن من الياسمين ، وقدح من الجُلاب ، وليلى لها عين غزال . قلت إنه طفل ، طفل طيب ...

(١) النخور من النخل عظيمة الجذع والسعف
(٢) العمارة غطاء الرأس

(١) ضرب من الحيوان البحرى يبنى بيوته من الطين

كل قرية لها توابع حيوانيــة جديرة بالتأمل ، فهذه إبلٌ راعية ، هادرة ، رازمة ، تهزأ رقابها الطويلة بما حولها من الجُدُر والحظائر . وهذا قطيع من المعز ينتف جلد الأرض الهزيل ، هذه الأشواكَ المغبرّة . وهنا كلب ينبح السفينة من الساحل ، وهناك دجاجات تطير من قمامة إلى أخرى . وفى الهواء عدة من الحمائم . وهذه جاموسة مدت رأسها إلى النهر ترى قرنيها الزينين فى جبهتها العاطلة من الفكر ، وبين الحين والحين تطأطئ إلى الماء لتشرب جرعة كبيرة من صورة السماء

وفى الفينة بعــد الفينة يبرز رأس امرأة من كوّة كوخ . ينشقّ فمها الحائر الأبكم عن ابتسامة ميتة ، ووجهها كله برقع من جلد متكنّـع . وكل زينتها وحليّها ولباسها ثوب فى لون الطين . تحسب كل واحدة منهن جســداً بغير روح قد التفّ فى كفن أسود . كذلك حُرمنَ الحياة . وينظرن إلينا نظرات مترددات — نظر الظبي إلى صياده . وكل رجل عندهن حاكم ظالم

أطفال البــداة يثيرون فى القلب أبلغ رحمة : أيديهم عصى ضامرة ، وعيونهم يملؤها ابتسام مضطرب ، وأبدانهم الراجفــة فى القُمُص الزرقاء نحيلةٌ شاحبة ضعيفة هامدة ؛ يطيرون وراء السفينة ساعات من أجل تمرة واحدة ، أو لقمة من الخبز ، صائحين ضاحكين . ينقّطون الساحل بأشباحهم السوداء

وارحمتاه لأطفال البادية البائسين !

مهما يكن العلَم الخافق فوق الصحراء فان لها حاكما طبيعياً هو الشمس

الشمس توقد هنا كل موجود ، وتُلهب كل شيء : كل الأشياء التى حولنا تسبح من الشروق إلى الغروب فى ملاعب نورية مختلفة الألوان . وستتقلب السماء والتلال والأرض والأفق حتى ماء النهر كل يوم من الفجر إلى الشفق ، فى دقائق من ألوان الورد والبنفسج ، والذهب والزمرد ، والياقوت والفيروزج . وهنا يولد الضياء كل يوم ويتلوّن ويتلألأ ، ويتحلل ويتجمع ، ويذوب ويَغيب . ثم يستأنف الليل حياته فى مطر من النجوم يتجلّى فى قاع النهر

نشهد الآن أجملَ الساعات — ساعةَ أفول الشمس ، والنهر والآفاق مغشّاة بأشعة العقيق والكهرمان . وينبعث على ظهر السفينة صوت مؤذّن ينادى للصلاة — هــذا النداء المرتعد فى سكون العشىّ ، هــذا النداء البلّورى ، الذى يملؤه الوجد ، وتتقسمه السكتات القصيرة ، يطير فيعلو ، فيصعد الى العيون ، كأنما يبلغ سدة الخالق العظيم . الله أكبر . الله أكبر . . .

البريد الأدبى — وفاة زعيم صينى

[بقية المنشور على صفحة ١٥٧]

بتعليم اللغة الصينية والفلسفة فى معاهد سيجون وهتوى ، ولكنه جنح إلى السياسة ، وانضم إلى زعماء الحركة التحريرية ، واستطاع بنفوذه الفكرى والثقافى أن يثير على الحماية الفرنسية دعاية قوية ، وانتهت هذه الدعاية بثورة عنيفة انتهت بمقتل الملك « تاى ين دى توان فو » . وفى سنة ١٩١٣ ألقيت القنابل على حاكم الهند الصينية مسيو البير سارو فى شرفة أحد الفنادق ، ولكنه نجا وقتل بعض حاشيته . واتهم « بام بوى شان » فى هذه الجناية ، وقضى عليه غيابياً بالاعدام ؛ ولكنه فر إلى الصين . وغدا « بام بوى شان » عندئذ بطلاً وطنياً وزعيماً روحياً وفكرياً للحركة الوطنية على مثــل صن يات صن فى الصين وغاندى فى الهند . ولكن قبض عليه فى شنغهاى سنة ١٩٢٥ ، وقدم المحاكمة مرة أخرى فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وعلى أثر الحكم عليه اضطربت الهند الصينية بقلاقل عنيفة فاضطرت السلطات أن تصدر العفو عنه بعد شهرين . وعلى أثر ذلك أذاع الفيلسوف بياناً على مواطنيه قال فيه إنه يعتزل القيادة العنيفة ويدعو منذ الآن الى سياسة الوفاق . وكان هذا التحول أكبر عامل فى ضياع نفوذه السياسى ، فعاش منــذ ذلك الحين فى عزلة ، ينقطع الى تأملاته ونظرياته الفلسفية والروحية التى كانت قبساً جديداً من فلسفة الصين القديمة